الهيئة العامة
لقصور الثقافة

من أساطير الخلق والزمن



صفوت كمال

من أساطير الخلق والزمن

صفـــوت كمـــال

مكتبة الدراسات الشعبية

(٥٨)

سلسلة شهرية تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور
ونصوص وسير وحكايات وملاحم الأدب الشعبي

- من أساطير الخلق والزمن .
- صفوت كمال .
- الطبعة الأولى .
- القاهرة ، سبتمبر ٢٠٠١ م
- تصميم الغلاف للفنان ، محمد بغدادي
- لوحة الغلاف : قناع رقصة - من باكوبا بالكونجو - من الخشب والفايبر، مطعم بالخرز والقواقع - من مقتنيات متحف تيرفيرين - بلجيكا.
- كلام الغلاف الأخير ، من تقديم الأديب خيرى شلبى .
- رقم الإيداع ، ١٦٥٧٨/ ٢٠٠١
- المراسلات ،

باسم مدير التحرير
على العنوان التالى ، ١٦ أ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت ، ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى ، ١٨٠)

- الطباعة والتنفيذ ،

شركة الأمل للطباعة والنشر.
ت ، ٣٩٠٤٠٩٦

من أساطير الخلق والزمن

صفـــوت كمـــال

المحتوى

هذا الكتاب

طريق الحدائق والغابات الممطرة

أصبح اسم الأستاذ صفوت كمال مرادفا للفولكلور، وربما كان أحد القلائل بين الفولكلوريين العرب الذين صاروا معروفين على نطاق واسع. فقد اخترق اسمه حاجز الدراسات الأكاديمية وأصبح مؤهلاً بطول المران وعمق التجربة واتساع الخبرة لأن يكون كاتبا سريع التواصل، جيد التوصيل، يفهمه قراء الصحف السيارة، تماما كعمه الكبير زكريا الحجاوى، ذلك

الذى ترك فى الأستاذ صفوت كمال شيئاً كثيراً من روحه واهتمامه الحميم بالفنون الشعبية من حيث هى انعكاس للبيئة ومرآة لشخصيتها .

وإذا كان العم زكريا الحجاوى قد درس الشعوب البدائية ، أو الجماعات النوعية داخل الوطن الواحد ، من خلال أغنياتهم ولهجاتهم وحواديتهم وملاحمهم الشعبية ؛ فإن صفوت كمال يقوم بنفس المهمة ولكن من خلال الفنون اليدوية وما أغناها وأكثرها تنوعاً ، من النحت إلى التشكيل اللونى ، من التماثيل البدائية إلى الوشم على الأيدى والأصداغ والأذرع وواجهات البيوت ، من الأقنعة الخشبية إلى قلة السبوع وعروسة المولد وشغل الأرابيسك والرقش الإسلامى والزخرفة على الجدران والحفر على النحاس . . . إلخ .

سنوات طويلة وجهود مضنية بذلها صفوت كمال مخلصا لهذا العلم الذى يعتبر أهم مدخل لدراسة الإنسان واكتشاف جوهره الثمين ، حتى أصبح بحق أحد أهم مؤسسى علم الفولكلور العربى بعد الرائد الأكبر أحمد رشدى صالح عليه رحمة الله .

وإنه ليسعدنا أن نقدم لقراء هذه السلسلة هذا الكتاب «من

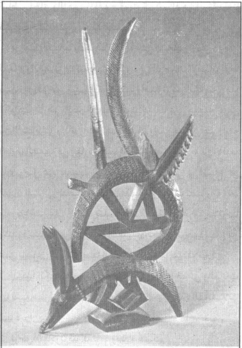
أساطير الخلق والزمن» لمؤلفه صفوت كمال، إذ هو في تقديرنا مكسب كبير للقراء ولهذه السلسلة .

في هذا الكتاب يتعرف القراء على أساطير الخلق، وعلى الرموز والشعائر المؤثرة عبر القرون في الوجدان الإنساني وما بينها من قواسم مشتركة تؤكد وحدة الإنسانية على هذا الكوكب الأرضي البديع . ويتعرفون كذلك على مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية، وعلى فن من أهم وأرفع الفنون الشعبية في القارة السمراء : أفريقية ونعني به فن الأقنعة الذي وصل عند بعضهم إلى مرتبة الإعجاز الفني في اتساع أفق الفنان البدائي التلقائي ومدى دقته في تنفيذ تصوراته رغم صعوبة الحفر على خشب صلد، هناك أقنعة رغم غرابة ملامحها وشذوذ نسبها عن المألوف والتقليدي تكاد وجوهها تنطق من عمق المشاعر التي شخصها النحات وجسدها بين الملامح .

إن هذا الكتاب رحلة ممتعة في طريق تحفه الحدائق والغابات ويؤنسه هطول المطر، مطر الفن الباعث على هذه التحليلات النيرة .

نرجو أن نكون قد أفدنا . . وسلام عليكم .

• خيري شلبي •



غطاء للرأس يستخدم أثناء الرقص - قطعة واحدة من الخشب - من بامبارى فى مالى - مقتنيات
المتحف القومى فى كوبنجهان

تصدير

هذه دراسات حرصت على انتقائها من بين دراسات عديدة تقدم تصوراً لمفاهيم أساسية فى الفكر البدائى تعبر عن تصوره لوجوده وللوجود الذى يحوطه.. منها ما نشر فى أعداد متفرقة من مجلة عالم الفكر، حاولت من خلالها التعريف بعالم الإنسان فى حياته الفطرية فى مجتمعات متنوعة، وبما تحمل إبداعاته الفكرية والفنية من رؤية ذاتية لعالم السماء والأرض وما يعايشه الإنسان من كائنات..

وهى كلها أساطير وحكايات يجمعها عالم الخيال فى تصور أدبى حينا.. وممارسات طقسية فى أحيان أخرى.. يتلاقى فى تكوينها الخيال الفكرى مع

الإبداع الفني التشكيلي في وحدة تعبيرية لها طابعها المتميز بأصالتها الفطرية.. وصدقها التعبيري.. في تجريد عالم الأشياء إلى تصورات ذهنية.. ويجسد عالم التصورات في تكوينات مادية تعطي للوجود تفسيراً خاصا، يعطي للحياة رؤى متنوعة.. ولكنها كلها معاً تُعلي من قيمة الحياة.. وتؤكد قدرة الإنسان على تفسير مظاهر الكون قدر طاقته وفي حدود معرفته عبر حقب من الزمان، وقطاعات من المكان..

الفصل الأول

من أساطير الخلق

منذ بدء الخليقة إلى الآن، وقف الإنسان عند الكثير من المظاهر الكونية المحيطة به، مبهورا آنا، وحريصاً آنا آخر على معرفة أسرار هذا الكون، واستقراء ظواهره الطبيعية، محاولا استنتاج القوانين والعلل المسيرة أو المنظمة له، أو تفسيرها .

ظل الإنسان -حتى الآن - في تطلعه نحو المجهول يحاول معرفة خباياه، ساعيا إلى معرفة العلل الكامنة خلف مظاهر الأشياء، وهو في كل هذا - في تطلعه وسعيه نحو اكتشاف المجهول، بتصوراته الفكرية التي امتزج فيها الخيال بالواقع التجريبي مع النظر التجريدي- قد وضع حلولا جزئية لمشكلة الوجود : وجوده هو

والوجود المحيط به. يدفعه إلى ذلك حب الاستطلاع أو الرغبة في الكشف، التي لم تفارق الإنسان منذ لحظة الاندهاش الأولى التي بزغ منها الفكر الأسطورى في محاولة لتفسير ما يراه، إلى أن أقام جسراً، في عصرنا الحاضر - من خبرته التكنولوجية والعلمية - بين الأرض والقمر .

والإنسان البدائى رغم تخلفه العلمى . . لم يغفل - كإنسان - وجوده والكون الذى يحوطه وحاول أن يضع تفسيرات للظواهر الطبيعية وتصور لها وجودا يماثل وجود الكائنات الحية - إلى حد ما - وأعطى من أخيلته صفات تفوق صفاتها الطبيعية وخلق لعالم الطبيعة عالما آخر فوق الطبيعة، عالما غيبيا هو من صنع الإنسان نفسه، فأنشأ الأساطير التى تعتبر بداية نشوء الفكر الميتافيزيقى، ومارس طقوسا يمتزج فيها السحر بالخرافة، لإرضاء القوى الغيبية المسيطرة على الكون، والأرواح الساكنة فى الكائنات : ومحاولة وضع تفسيرات لما يحوطه أو يعلوه من ظواهر الكون. و«حينما قرن الإنسان بين منازل القمر المختلفة وبين منازل النجوم، آثر أن يضع قصصاً ممتعة، تصور أن الإله الطيب حطم القمر إلى أجزاء صغيرة، فنشأت النجوم من هذا الفتات»(١) . وأنشأ الأساطير عن زواج السماء والأرض وخلق

الإنسان.. فالسماء أبوه والأرض أمه. وقصصاً عن زواج الشمس والقمر.

وحين يقترب المرء من مجموعة الأساطير الفلكية ـ كما يقول ألكسندر كراب ـ يشعر على الفور أنها قصص تفسيرية شارحة. «فالاندهاش وحب الاستطلاع وبساطة الاقتناع من سمات الفكر البدائي، كما أنه الأساس في عمليات خلق الأساطير، ومحاولة وضع تفسيرات عن خلق العالم، وظهور أول انسان على الأرض» (٢).

في البدء كان الماء:

فكرة أن الماء هو العنصر الأول للوجود نجدها شائعة في معظم الأساطير التي أنشأتها الشعوب على اختلاف بعدها المكاني أو تتابعها الزمني، في نموها الحضاري أو طفولتها الفكرية فالماء عنصر الحياة الأساسي، ومن الماء جعل الله كل شيء حيا كما ورد في القرآن الكريم وروح الله ترف على الماء كما ذكرت التوراة.. والفكر الإنساني بفطرته التلقائية افترض الماء علة الوجود.. في البدء كان الماء حيث إن الماء بطبيعته يتشكل عدة أشكال، بخار (هواء) وجليد (أرض): هذا الافتراض (الماء علة الوجود) ساد الفكر الاغريقي في نشأته

الفلسفية [٣] . وفي الأساطير البابلية تسير الماء الآلهة Tiamat التى ذبحها ماردوك Marduk . وفي المعتقدات المصرية القديمة فاض النيل من دماء «أوزوريس» الذى قتله أخوه «ست» أو من دموع «إيزيس» التى بكته، أخاً وحبيباً، وزوجاً ووالد ابنها حوريس.. وفي الأساطير الإيرانية القديمة أوجد هرمز جميع الخلائق من الماء. وفى الأساطير اليابانية وجد العالم من الماء. فقد أرسلت الآلهة من عالم السماء إيزاناجي Izanagi وإيزانامي Izanami ومعهما حربة مرصعة بالجواهر. ونزلا من السماء على الجسر العائم فى السماء (قوس قزح). وغمسا الحربة فى ماء البحر.. وحينما سحباها سقطت قطرة من الماء المالح من نهاية الحربة. هذه القطرة أصبحت جزيرة أنو جورو Onogoro. ثم نزل ايزاناجي وايزانامي من السماء إلى هذه الجزيرة، واحتفلا باتحادهما، ثم أنجبا طفلا ضعيفا غير سوى. لأن ايزانامي خالفت الطقوس المرعية في الزواج وتكلمت قبل زوجها. وتروى الأسطورة بعد ذلك أن هذا الطفل وضع على قارب من البوص [٤] Reed-Boat وهو الذى كون فيما بعد جزيرة آوا "Awa". بعد ذلك، حرص ايزاناجي وايزانامي على مراعاة طقوس الزواج، وأنجبا الجزر اليابانية الرئيسية الثماني، حتى

ماتت ايزانامى وهى تلد طفلها الأخير Kagu Tsuchi إله النار.
وبرزت آلهة كثيرة من جسدها المتحلل ومن دموع ايزاناجى..

دفن ايزاناجى زوجته ايزانامى في جبل هيبا Hipa في جزيرة إيزومو Izumo وذهبت ايزانامى إلى العالم السفلى وحين طلب منها ايزاناجى أن تعود، نصحته بالانتظار، لكنه لم يستطع صبرا، فانطلق وراءها ونزل إلى العالم السفلى Hades فوجد نفسه أمام كومة عفنة كريهة، ففر من العالم السفلى تطارده ربات الانتقام اللاتى أرسلتهن ايزانامى وقد أحنقها صنيعه، لكنه استطاع النجاة وأغلق باب العالم السفلى بحجر ضخم. ثم تمضى الأسطورة تفسر أسباب ظهور الشمس والقمر والرياح. فلقد أحس ايزاناجى بعد صنيعه هذا (اللحاق بايزانامى) بحاجته إلى التطهر من أدران العالم السفلى، فذهب ليستحم فى أحد أنهار كيوشو Kyushu(٥) وحينما غسل عينه اليسرى ظهر إله لمعان السماء (الشمس) وحينما غسل عينه اليمنى ظهر إله ضوء القمر. وحينما غسل أنفه ظهر إله البحر الذى تحول إلى إله الريح. وأعطى ايزاناجى لإله الشمس حكم السماء وإله القمر حكم عالم الليل. وإله الريح حكم عالم البحر(٦).



الإله إيزاناجي والإلهة إيزانامي - أخته وزوجته- أثناء نزولهما من عالم السماوات العليا لخلق جـــزر اليابان

هذا التصور للشمس والرياح والبحر نجده بشكل آخر بين المجتمعات البولينيزية Polynesian الموجودة بالجزر المنتشرة فى المحيط الهادى . ففى حكاياتهم الأسطورية يردون قصة الخليقة إلى "Tangloa" الذى يعيش فى السماء العليا، وهو على شكل طائر كبير، هذاالتصور نفسه نجده فى نيوزيلاند New Zealand ويسمى Tanagaroa الشمس فى عينه اليسرى، وهو أيضا يمثل إله الريح فحينما يطير تهب الريح من ضربات أجنحته، وهو أيضاً إله البحر فقد نشأ المحيط من قطرات عرقه المالح. ومن هذا الطائر العلوى خرجت بيضة، ومن البيضة تكونت السماء والأرض(٧).

وبين قبائل الهنود الحمر المنتشرة فى شمال غرب القارة الأمريكية نجد أيضا الاعتقاد بأن الوجود الأول كان للماء. وأن الإله أرسل حيوانات متنوعة إلى باطن البحر لتحاول العثور على بعض الأرض تحت أعماق الماء «كلهم ذهبوا وماتوا غير أن فأر المسك muskart (حيوان قارض يشبه الفأر) نجح فى ذلك وأحضر بمخالبه حفنة من قاع البحر وأخذها الإله وصنع منها الأرض بعد ذلك»(٨).

الشمس والقمر :

تروى بعض الحكايات الإفريقية الخرافية أن الشمس كانت على الأرض تعيش مع الماء فى صداقة وود دائمين «وكان الشمس[٩] يزور صديقه الماء والماء لا يزور الشمس ولو مرة واحدة . وسأل الشمس الماء لماذا لا يزوره ولو مرة واحدة . فأجابه الماء بأن بيت الشمس صغير ولن يتسع للماء وشعبه الكثير . فإذا حضر الماء مع شعبه فلن يجد الشمس مكانا له فى بيته . وقال للشمس إذا أردت أن أحضر لزيارتك ، فابن لى مكانا فسيحا متعدد الحجرات . ولكننى أحذرك أن شعبى كثير العدد وسوف يحتل كل المكان .

وعد الشمس الماء بأن يبنى له هذا المكان الكبير ، ورجع الشمس إلى القمر زوجته ، التى حيته بابتسامة كبيرة وأخبرها بما وعد به الماء . وبالفعل أقام الشمس المكان الكبير الذى سيرحب فيه بصديقه الماء . .

لبى الماء دعوة الشمس . وحينما وصل إلى بيت الشمس سأله عما إذا كان دخوله لا يسبب له ضرراً . وأجابه الشمس بأنه يرحب به . حينئذ بدأ الماء يدخل يصاحبه السمك وكل الحيوانات المائية . وسريعا وصل الماء إلى ارتفاع الركبة ، وسأل

الشمس عما إذا كان ما زال فى أمان، وأجابه الشمس، نعم يا صديقى تفضل، فطفا مزيد من الماء حتى وصل إلى ما يعادل القامة، وسأل الماء الشمس «هل ما زلت تريد مزيدا من شعبى» فأجاب كل من الشمس والقمر «نعم». فلم يكن فى وسعهما الإجابة بغير ذلك. وتوالى تدفق الماء مع شعبه أكثر فأكثر، فلم يجد الشمس والقمر سبيلا لإنقاذ نفسيهما سوى الصعود إلى قمة السطح.

كرر الماء نفس السؤال، وتلقى من الشمس والقمر نفس الإجابة «نعم». فاندفع الكثير من الماء وشعبه وسرعان ما غطى الماء قمة السطح، فاضطر الشمس والقمر إلى الصعود فى السماء. حيث ظلا هناك منذ ذلك الوقت. لذلك يحيا الشمس والقمر فى السماء»(١٠).

هذا التصور (وجود الشمس والقمر على الأرض) نجده أيضا بين قبائل البوشمان Bushmen التى تقطن جنوب غرب افريقيا. والإنسان هو الذى رفع الشمس إلى السماء فقد كانت الشمس قديما تعيش مع الإنسان الأول early race - وكانت الشمس فى تصور البوشمان «رجلا مستلقيا على الأرض ومتكئا على ذراعه ويخرج الضوء من تحت إبطه يعطى للفضاء الذى يحيط ملكه.

إلى أن رفعه بعض الأطفال برفق وألقوا به إلي السماء ليعم الدفء وينضج الأرز الذى زرعه البوشمان . وكان الظلام يحل إذا أرخى الشمس ذراعه وحجب إبطه الذى يضيء الأرض . ولكن حينما ألقى الأطفال الشمس إلى السماء بناء على نصيحة جدتهم العجوز استدار ولم يعد إنسانا كما كان» . كما يتصور البوشمان أن القمر كان إنساناً ، وكل من الشمس والقمر كان يتحدث ، أما الآن فلا يسمع حديثهما لأنهما يعيشان في السماء(١١) .

وبين قبائل البوشمان التى تعتبر من أكثر القبائل البدائية في أفريقيا نجد قصتين مختلفتين عن القمر ، الأولى تصف القمر بأنه كان نعالا خفياً للكائن الغيبى مانتس Mantis الذى رماه إلى السماء في ليلة مظلمة . ويروى أن هذا النعال كان مصنوعا من ريش النعام وحينما ألقى به مانتس إلى السماء قال له : من الآن ستبقى في السماء . ويجب أن تظل وإلي الأبد القمر ، تلمع في الليل ، وبضوئك تنير الظلام للناس إلى أن تشرق الشمس وتنير كل شيء للناس .

وتروى القصة الثانية حكاية أخرى عن القمر والشمس نذكرها هنا - رغم اختلاف موضوعها - لشيوعها بين

البوشمان ولنعطي جانباً آخر مفسرا للفكر البدائي عند قبائل البوشمان في تصورهم للقمر : تعرض القمر ذات مرة لسخط الشمس فمزقته بسكينها (أشعة الشمس) وظلت تمزقه حتى لم يبق منه سوى قطعة صغيرة. فتضرع القمر [١٢] إلى الشمس أن تترك هذا الجزء لأطفاله، ومن هذا الجزء بدأ القمر يكبر ثانية بالتدريج إلى أن يصبح كما نقول بدراً كاملاً، فتبدأ الشمس بطعنه من جديد وتمزقه ،و هكذا دواليك.

وحينما يرقد القمر على ظهره.. (يغيب ا لقمر).. ينظر إليه البوشمان على أنه علامة الموت، أنه يرقد فارغا، أنه يقتل نفسه بحمل الناس الذين ماتوا[١٣].

هذا السخط الذى تعرض له القمر من الشمس الذى لم تذكر سببه حكايات البوشمان الأسطورية، نجد عند قبائل أخرى تفسيراً له عند محاولة تفسير أسباب كسوف الشمس وخسوف القمر ووجود بقع على القمر. إذ تفسر قبائل «زامبزى Zambezi في موزمبيق ذلك بأنه حدث شجار بين الشمس والقمر[١٤] فالقمر قديما كان شاحباً لا يلمع ويغار من الشمس التي يلمع ريشها (أشعة الشمس) وتزهو به «انتهزت القمر فرصة أن نظر الشمس إلى الجانب الآخر من الأرض

فسرقت بعض ريشه النارى لتتزين به . لكن الشمس اكتشف ذلك فغضب ونثر على القمر بعض الطين الذى ظل عالقا بها إلى الأبد . منذ ذلك الحين تحرص القمر على الانتقام من الشمس ، وكل عشر سنوات تفاجىء القمر الشمس حين عودته وتنثر عليه بعض الطمى ، فيبدو الشمس وعليه بقع كبيرة ويظل لعدة ساعات لا يلمع ، وتحزن الأرض لذلك . وينزعج الإنسان والحيوان ، لأنهم يحبون الشمس»[١٥] .

بين الاسكيمو نجد حكاية تحمل تفسيرا آخر عن الصراع بين الشمس والقمر . . وتعليلا لتتابع الشمس والقمر . وملاحقة القمر للشمس «فلقد كان القمر أخا للشمس . وفى إحدى الليالى أراد الأخ أن يزور أخته سرا بالليل . ولكنها ميزته بأن علمت ظهره بيديها . وقطعت ثدييها وأعطتهما له . وفى غضبها نزلت إلى السماء ولكن القمر تبعها ومن ذلك الوقت وهو يطاردها»[١٦] .

تتعدد وتتنوع الأساطير والحكايات الأسطورية عن الشمس والقمر باعتبار أن الشمس والقمر من أبرز الظاهرات الكونية ولدورها الأساسى فى الحياة اليومية للإنسان . . وكثير من الشعوب ألهت الشمس باعتبارها ضوء الحياة . . وواهبة الحياة

للإنسان.. وهى أكبر من القمر ومن النجوم[١٧].. وهى تعطى الدفء كما يعطى الماء النمو. ولقد حظى موضوع الشمس والقمر وكسوف الشمس وخسوف القمر فى الفكر البدائى والتصور الأسطورى باهتمام علماء ا لأنثولوجيا والفولكلور وخاصة بين المهتمين بدراسة الأساطير وعلم الأساطير المقارن مثل ماكس مولر Max Muller واندرولانج Andrew Lang وغيرهما كثيرون ممن اهتموا بثقافة الشعوب خاصة فى المجتمعات الإفريقية مثل ادوارد برنت تيلور E.B. Taylor، الفرد نت Alferd Nett، جيمس فريزر J. Frazer، مالينو فسكى B.Malinowski من رواد دراسات ثقافة الشعوب[١٨]. فمنذ نصف القرن الماضى ساد اهتمام علمى جاد بين علماء الإنسان فى دراسة ثقافة وأساطير الشعوب البدائية، والسحر والخرافة التى تلعب دوراً أساسياً فى نظم هذه المجتمعات والمعتقدات والطقوس التى تشكل فى الواقع جانبا هاما من مكونات ثقافة الإنسان البدائى وتفسر الكثير من العادات والتقاليد التى يمارسها المجتمع المعاصر.. باعتبار أن الإنسان حمل ضمن مراحل تطوره موروثات ثقافية يمارسها تلقائيا فى حياته اليومية الجارية دون إدراك كامل لأصلها التاريخى ومجالات انتقالها والتغيرات

الحادثة فيها بتغير المكان وامتداد عمق الزمان. كما أنه ما زال في عصرنا الحاضر في بقاع متنوعة من الأرض في شمال القارة الأمريكية، وفيما بين القارتين وفي الجزر المنتشرة في المحيط الهادى وعلى سواحل البرازيل وفي استراليا ووسط إفريقيا وجنوبها، بل أن نصف هذه القارة تكاد تقطنه جماعات متخلفة عن ركب الحضارة الإنسانية وتحلم فى طفولة فكرية مفسرة بأحلامها الخيالية ظاهرات الكون، معطية الظواهر الطبيعية قوى تفوق واقعها الحسى، هى من صنع الإنسان ومن نسيج أوهامه.

وقد عرضنا فيما قبل لبعض هذه التصورات فى شرح بعض مظاهر الكون خاصة الشمس والقمر وكيف كانا على الأرض وما تخيله الإنسان البدائى عما بين الشمس والقمر من ترابط، هذا التصور نفسه نجده بالنسبة للسماء والأرض.

فقد افترض الإنسان أن الأرض والسماء كانتا مرتبطتين معا يعيشان كزوجين ملتحمين إلي أن انفصلا بواسطة أطفالهما كما ورد فى كثير من أساطير الحضارات التى سادت ثم بادت لعوامل خارجة عن إرادتها.

هذا الاعتقاد بزواج السماء بالأرض ثم انفصالهما بواسطة أولادهما نجده شائعا فى نيوزيلاند.. ويذهب بعض الباحثين إلى

أن فكرة انفصال السماء عن الأرض انتقلت إلى نيوزيلاند New Zealand من اليونان (١٩)، وهناك رأي آخر يقول إنها انتقلت من الفكر المصرى القديم(٢٠).

والاعتقاد بأن السماء والأرض كانتا مرتبطتين معا. ومن السماء والأرض بزغ الإنسان فالسماء أبوه والأرض أمه ثم انتقل السماء إلى أعلى، نجد هذا الاعتقاد سائداً بين معظم القبائل القاطنة فى جنوب غرب القارة الأمريكية وفى كاليفورنيا. هذا التصور (أمنا الأرض) نجده أيضاً بين قبائل واشنجتن وكولومبيا البريطانية. كما أن الأرض تطفو على الماء منذ الأزل نجده أيضا بين كثير من القبائل فى القارة الأمريكية. هذا التصور (الأرض طافية على الماء) قد يرد ما انتشر فى العالم من عناصر و«موتيفات» قصة نوح التى وردت فى العهد القديم(٢١). كما توجد حكايات أخرى بين قبائل الساحل الشمالى للباسفيك عن زواج الشمال بالجنوب، وأنجبا ولدا وبنتا وحينما كبر الولد والبنت تزوجا، وبهما انتظم البرد والحر(٢٢).

وفى شمال شرق القارة الأمريكية نجد تفسيراً آخر للرياح، إذ يوجد طائر كبير وحينما يضرب بجناحيه الكبيرين تهب الرياح(٢٣). وفى تصور آخر يفترض الإنسان أن الرياح محبوسة

في كهف وعندما يطلق سراحها تهب، أو أن ريح الشمال تتصارع مع ريح الجنوب ومن صراعهما تهب الرياح[٢٤].

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن السماء والأرض، دون استطراد كبير، وإن كانت الحكايات الخرافية بطبيعتها الأسورطة وخاصة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية تربط الظواهر بعضها ببعض. والسماء والأرض مرتبطتان كارتباط نصفي البيضة وتعتقد قبائل الهنود الحمر القاطنين على ساحل المحيط الأطلنطي بالبرازيل بالقرب من نهر «كسينجو» Xingu بأن الإنسان يمكنه السير من الأرض إلى السماء وبالعكس. هذا التصور الذى نجده بين قبيلة بكايرى Bakairi[٢٥] نجد مثيلا له ولكن بتكوين أسطوري آخر بين قبائل باسوتو Basuto، وترانسفال Transvaal بجنوب افريقيا، فبعد أن صنع Huvean الكائن الغيبى السماء والأرض صعد إلى السماء بوساطة أوتاد ثبتها إلى أقدامه. وكلما خطا خطوة إلى أعلى نزع الوتد، إلى أن اختفى فى السماء وأخذ معه كل الأوتاد التى تسلق بها إلى السماء حتى لا يستطيع أحد أن يلحق به.

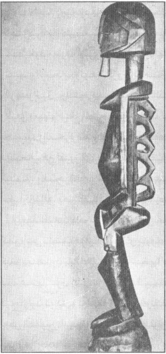
هذا التصور بأن السماء تلتحم بالأرض يصاحبه تصور آخر بأن السماء صلبة مثل الأرض. ويمكن لنساء التوجو Togo بغرب

أفريقيا وكذلك نساء قبيلة الباسوتو أن يضربن الأفق بمدقات المصاحن التى يصحن فيها الغلال . ولكن لم يتوصل أحد بعد إلى الأفق حيث تلتقى السماء الصلدة بالأرض الصلبة . وفى إحدى أساطير قبيلة أشانتى Ashanti التى تعتبر من أهم القبائل فى غرب أفريقيا نجد نفس الحدث الذى رويناه فى القصة السابقة ولكن بشكل آخر . إذ تروى الحكاية الأسطورية بأنه كان قديما - قديما جدا- يعيش أونيانكوبون Onyankopon على الأرض أو على الأقل قريبا منها . و كانت توجد أيضا امرأة عجوز اعتادت أن تنحنى على المدق وتصحن فيه الهريس، وتدق بشدة، حينذاك لم يكن أونيانكوبون عاليا فى السماء وكان صوت المدق يزعجه . فقال للمرأة التى لا تكف عن ا لدق . لماذا تفعلين ذلك معى، سوف آخذ ذاتى واذهب بعيدا عنك فى السماء، وفعلا فعل . ولم يعد فى استطاعة الناس أن يقتربوا من أونيانكوبون . وفكرت العجوز فى وسيلة تصل بها إليه لتعود به . فكلفت أبناءها أن يذهبوا ويحضروا كل ما يجدونه من مدقات الغلال . ذهب أبناؤها وأحضروا لها كل ما وجدوه . فأمرتهم أن يضعوا كل مدق منها على الآخر ليصلوا إلى حيث ذهب أونيانكوبون . فعلوا ما أمرتهم به، ووضعوا كل مدق على

الآخر - على هيئة برج إلى السماء - ولكن وجدوا أنهم فى حاجة إلي مدق آخر، مدق واحد فقط ليصلوا به إلى مكان أوليانكوبون. بحثوا فلم يجدوا، فقالت لهم العجوز: «خذوا واحدا من أسفل وضعوه فى أعلى».. فعلوا ما نصحتهم به العجوز فسقطت كل المدقات وقتلت الكثير من الناس. وهكذا بقى أونيانكوبون فى السماء[٢٦].

هذه الحادثة تصور أيضا كيف افترض الإنسان البدائي أن الإله كان على الأرض ثم ارتفع إلى السماء.. كما نلحظ عناصر منها موجودة فى أجزاء عدة من أفريقيا، ففى بعض الأحيان يكون ارتفاعه إلى السماء، بسبب شرور بنى الإنسان، فقد كان بومبا Bumba يعيش على الأرض بين شعب «بوشوجو» Bushogo فى الكونغو وبعد أن أتم الخليقة ووضع الشرائع للناس عاد إلى السماء. ومنذ ذلك الوقت لا يتصل بهم، إلا عن طريق الأحلام أحياناً أو بالمشاهدة أحياناً أخرى نادرة.

هذا الاعتقاد بوجود قوة عليا خالقة، أو إنسان أول، صعد إلى السماء، بعد أن أرشد بنى الإنسان إلى معرفة فنون الحياة مثل أنكولونكولو الذى سبق الإشارة إليه الذى ظهر من نبات البوص"Uthlanga "bed-reed.



تمثال من الخشب من قبيلة دوجون فى مالى، يمثل الطريق الذى مر به الخالق أثناء خلق العالم

هذا الاعتقاد بوجود قوة عليا يصاحبه اعتقاد بقوى غيبية خلف الظواهر الطبيعية، والعرافون والسحرة هم الذين يستطيعون معرفة أسرارها. فهم بإمكانهم مخاطبة الشمس وتسيير السحاب وتهدئة الروح الغاضبة المسببة للعواصف والرعد والبرق. والسحرة منهم المعالجون الذى يعرفون سر الموت والمرض ومنهم صناع المطر، وكل منهم له نفوذ خاص داخل مجتمعه، والسحرة صناع المطر rain-makers هم رعاة السحاب، فالسحاب فى تصور الزولو Zulus بأفريقيا هو قطيع يسير فى السماء. والسحرة Inianges لهم القدرة على تسييره وإسقاط المطر أو إيقافه. وهم يتصلون بالأرواح بواسطة الصفير[٢٧].

ويعتقد شعب داهومى Dahomey فى غرب أفريقيا بوجود كائن أعلى، اسمه ماهو Mahou أو ماوو Mao وهو روح خير، كما يعتقدون ببقاء الروح وتناسخها فى كائنات أخرى، فالرعد والبرق الذى يرجف فى السماء هو روح فزعة. فيحاولون تهدئته بواسطة السحرة وتقديم القرابين وممارسة بعض الطقوس الدينية. كما أن الأفعى قوس قزح هى روح غير ضار وهى خادمة الرعد.

«ويميل علماء الأنثروبولوجيا المحدثون إلى اعتبار الدين

والسحر جزءاً مما يسمونه بالنسق الأيديولوجي، والمقصود بالأيديولوجي، نسق المعتقدات التي تفسر طبيعة علاقة الإنسان والكون، والممارسات والشعائر المتصلة بهذه المعتقدات»[٢٨].

قوس قزح :

حينما لاحظ الإنسان البدائي في أفريقيا قوس قزح تصوره كغيره من الظواهر الطبيعية - كائناً حياً- ونظرا لتقارب الشبه بين قوس قزح وبين الأفعى التي توجد على أرضه وتشبهه بألوانها أو يشبهها بألوانه، تخيل الإنسان قوس قزح في السماء أفعى تسعى بين السحاب تبحث عن الماء. وتفزع بعض القبائل من قوس قزح مثل فزعهم من الأفعى التي توجد على الأرض، فقدموا لقوس قزح القرابين وأقاموا له الحفلات الطقوسية. فالزولو Zulus مثلا، يتصورون قوس قزح عدة تصورات فهو حينا حيوان Umnymaوحينا آخر قوس الملكة Untigo Lewen-kosikazi أو قس (arch) من الفـــروع التي تكون بيت ملكة السماء. بعض آخر يتصور قوس قزح شاة تعيش في السماء.

من الحكايات التي تجمع في تفسيرها لقوس قزح التصورين السابقين (أفعى وشاة) الحكاية التي تحكى أن رجلاً من الشاجا Chaga سواحيلي Swahili سأل الخالق أن يمنحه قطيعاً من

الغنم. وذهب حيث يلمس قوس قزح الأرض(٢٩)، وجلس الرجل هناك يتعبد ويسأل الخالق أن يمنحه القطيع. ومضت عدة أيام ولم يظهر شيء. وتبين أن لارجاء في تعبده، ولا أمل له في الحصول على القطيع. فانتفخ قلبه - كما تروي الحكاية- ولم يستطع بعد ذلك صبرا فأخذ سيفه وضرب قوس قزح، فقسمه نصفين، نصف هرب إلى السماء، ونصف سقط أفعى على الأرض، حيث صنعت حفرة كبيرة. وبعض الناس يدفعهم حب الاستطلاع - كما تروى الحكاية- إلى النزول داخل هذه الحفرة فيكتشفون بلداً آخر جميلاً، فيمكثون هناك. وبعض آخر من القبائل يتصور قوس قزح أفعى إذا انتصر عليها الإنسان أخرج من جوفها ماشية كثيرة وأناسا كثيرين ممن سبق أن ابتلعتهم.

الرعد والبرق:

بعض الأساطير الأفريقية تفسر الرعد بأنه ناشىء عن «الطائر المنير» فهو صوت اندفاع أجنحته والطائر المنير هو روح كبير يرف ويضرب بجناحيه في السماء.

هذا التصور (طائر كبير) نجده كما سبق أن أشرنا بين بعض قبائل القارة الأمريكية، والريح تصدر عن ضربات أجنحة هذا الطائر، وفي جنوب الكونغو نجد تفسيراً للرعد فهو فأس الإله

(نزاسى) Nazasi الذى يتجول فى السماء للصيد وفى تجواله ينهمر المطر مدرارا. وإذا لمس ضوؤه أى كائن احترق. ويحتل السحرة صناع المطر مكانة كبيرة بين قبائل البانتو Bantu أكبر القبائل انتشارا فى وسط أفريقيا[٣٠]. فالسحرة هم الذين يملكون القدرة على إجبار عالم ما فوق الطبيعة أو عالم الغيبيات لتحقيق مطالبهم. سواء كان هؤلاء السحرة يمارسون العلاج أو مخاطبة السحاب والمطر، أو لهم القدرة على الاضرار عن طريق السحر الأسود. وهم يستخدمون أدوات مختلفة من عظام الإنسان أو الحيوان خاصة الحيوانات المفترسة ومن جلودها وأمعائها. ولبعض الحيوانات منزلة خاصة عند الإنسان البدائى[٣١]. وكذلك بعض النباتات تعتبر «طوطم» القبيلة،

الكواكب والنجوم:

نظر الإنسان إلي الكواكب والنجوم والبروج السماوية نظرته إلى غيرها من الظواهر الطبيعية. وتصورها كما تصور غيرها كائنات حية. فالدب القطبى وبرج الثريا Pleiades ومجرة درب التبانة Milky-way كانت مصدرا كبيرا من مصادر القصص الأسطورى[٣٢]. فتصور الإنسان درب التبانة ممراً للأرواح أو كنهر فى السماء، أو حفلة صيد أو رتقا فى

السماء[٣٣]. وبرج الثريا كأخوات سبع يتجولن في السماء، كما روت الأساطير اليونانية. فهن بنات أطلس اللائي رآهن برج الجوزاء Orion ابن نبتون Neptune والتي كانت ديانه Diana آلهة القمر ابنة المشتري تحبه. وكان أبولو Appollo أخوها يغار عليها من أوريون. والبنات السبع (برج الثريا) كان من عادتهن الخروج لجمع الزهور من الحقول. وحينما رآهن أوريون ذات ليلة في أثناء خروجه للصيد كعادته - طاردهن، إلا أن البنات فررن بعد أن حولتهن آلهة الأوليمب إلى حمائم قمرية. غير أن إحداهن - كما تمضي الأسطورة في وصف ماحدث - وهي Merope عادت إلى تجوالها في السماء ونزلت لتجمع الزهور من الحقول التي تعرفها على الأرض. حيث التقت برجل من بني الإنسان، أحبته وتزوجته ولكنه كان رجلاً سيئاً وسيىء الحظ وعاقبته الآلهة بإرساله إلى عالم بلوطو Pluto السفلي ليبقى هناك إلى أن يتم العمل الذي كلف به. وهو رفع صخرة كبيرة من أسفل إلى أعلى الجبل. وظن سيزيف Sisyphus أن في إمكانه ذلك ولكن كلما كاد أن يصل بالصخرة إلى أعلى الجبل، تدحرجت وسقطت من جديد. وتروى الأسطورة أن حب ميروب لسيزيف كان شديداً فآثرت البقاء معه. لذلك لا ترى



لوحة من النحت البارز من البرونز، فى بنين بنيجيريا، يُرى فيها القائد أو زعيم القبيلة يرتدى جلد فهد ويحمل سيفاً يستخدم فى المناسبات الطقوسية

إحدى نجوم برج الثريا- إحدى الأخوات السبع - جيدا[٣٤] هذا التصور الإغريقي الذي ينقل عالم الآلهة من السماء إلى الأرض هو نفس التصور الذي دفع هوميروس بأن يربط قدر الإنسان - أبطال ملحمته - بعالم السماء. فعالم السماء وعالم الأرض متصلان ونقطة اتصالهما وانفصالهما في نفس الوقت هي الإنسان. الإنسان ابن السماء والأرض. والأرض والسماء كانا في البدء كتلة واحدة. كما في الفكر الهندي الصوفي الأسطوري كنصفي قشرة البيضة، ثم ارتفعت السماء إلى أعلى، والسماء والأرض يلتقيان عند الأفق كما ذكرنا من قبل في القصص الأفريقي وتصورات مجتمع نيوزيلاند.

هذا التصور نفسه انعكس على النجوم والكواكب فمثلا بين قبائل البكايري Bakairi بالبرازيل نجد برج الثريا هو ببساطة كومة حبوب، ومجرة التبانة، طبل كبير مما يستخدمه الهنود الحمر ويسمى Tomtom يضرب عليه كيري Keri وكام Kame وهما من أبطال الحكايات الخرافية عند الهنود الحمر.

في المجتمعات الافريقية نجد تصوراً آخر لا يخرج أيضا عن إسقاط صفات الأرض على عالم السماء. فيفسر البوشمان في إحدى حكاياتهم وجود مجرة درب التبانة Milky-way بأن

إحدى الفتيات من السلف القديم جدا- وفي زمان بعيد، ألقت إلى السماء برماد بعض الأشجار ثم ألقت ببعض جذور نبات يسمى huin وهو نبات صالح للأكل أحمر اللون. الجذور الكبيرة صارت نجوما حمراء والصغيرة صارت نجوماً بيضاء. أما قبائل «بوكومو» Pokomo فيتصورون أن درب التبانة نشأ عن دخان نار أشعلتها قديما عجوز تطهو عليها طعامها، بعد أن عانت هي وشعبها من هجوم الصوماليين. وتسمى قبيلة «أوكومو» Okomo مجرة درب التبانة، طريق الصوماليين njia ya Wakatwa لأن الصوماليين كانوا يأتون من الشمال الشرقي، كما يعتقدون أن لمعان نجوم درب التبانة هو تحذير لهم من هجوم قريب يشنه أعداؤهم عليهم[٣٥].

أما قبائل البانتو فيتصورون النجمة القريبة من القمر زوجة للقمر، وعند قبيلة أنيانجا Anyanja أن القمر له زوجتان (نجمة الصباح ونجمة المساء). ولم يلحظوا أنها نجمة واحدة، بل افترضوا أن واحدة تعيش في الشرق وهي نجمة الصباح Cheke-chami وهي تسيء إطعام القمر فيذبل القمر ويشحب لونه. فيذهب بعيداً عنها إلى نجمة الغرب Puikani التي تطعمه جيداً حتى يسمن. أما قبيلة «جيرفاما» girvama - كلها قبائل

أفريقية - فتتصور النجم القريب من القمر زوجا له وتسمى Makazamvezi [٣٦].

الفن عند الإنسان البدائي :

إذا كانت الأساطير المفسرة أو الشارحة للكون - كما رأينا قبل ذلك- تعطينا أبعاداً توضح إلى حد كبير البناء الفكرى عند الإنسان البدائى، فإن الفن البدائى - هو بدوره تعبير مباشر عن شعور الإنسان العميق بالغيبيات والإحساس بالسحر.

وقد لعب الفن دوراً أساسياً فى أشكال ممارسات الإنسان البدائى الطقوسية واعتقاداته الدينية، وخرافاته السحرية.

ولو تأملنا النحت الإفريقى بصفة خاصة، لوجدنا أنفسنا - مع النقاد المحدثين- أمام «فن خالص»، فنوعيته ومستواه يمكن أن يقاسا بالمقاييس والمعايير الأوروبية الفنية الحديثة دون إشارة إلى نوعية ومستوى الثقافة التي أنتجته. هذا الرأى الذى يعلى من قيمة الفن الأفريقي يقابله رأى آخر يرى أن النحت الأفريقى ليس عملاً فنياً بقدر ما هو مجرد شيء نفعى بدائى، (صنع بواسطة حرفيين مرتبطين بتقاليد مجتمعهم البدائى) بعيداً عن أى إحساس فنى من أى نوع.

كل من الرأيين له مبرراته، ولكن شيئاً واحدا متفق عليه هو

أن الفن الأفريقى قد أثر بالفعل فى الانتاج الفنى الحديث. وأعطى للفنان المعاصر أبعاداً جديدة فى تعبيراته الفنية سواء بالكتلة أو اللون أو النسب الفنية فى التشكيل. وقد تأثر بيكاسو وبراك، وماتيس، ودريان، وفالمنك وغيرهم بالفن الأفريقى وجمعوا نماذج من النحت الأفريقى.

فالفن الأفريقى هو تجسيد للفكر الأفريقى بتصوره الأسطورى واحتياجاته النفعية، هو تعبير عن روح الحياة التى تواكب الإنسان فى حياته البسيطة وتصوراته التلقائية، دون تعقيدات مصنوعة.

وهو تعبير - شديد الحساسية، وعميق الصدق- عن الإنسان، دون افتراض حواجز مصنوعة، أو كما يقال «إنه إبداع له القدرة على أن يخترق حواجز الثقافة ليلمس أرواحنا»[٣٧].

هوامش الفصل الأول

(*) نشرت المجلة في العدد الثالث من المجلد الأول دراسة عن «الإنسان والكون عند البدائيين» والمقال الحالي يعرض لجانب من المعلومات الأنثوجرافية الكثيرة المتوفرة عن هذه المسألة لدى فئة كبيرة من المجتمعات الإنسانية، ويساعد على إلقاء مزيد من الضوء على بعض التصورات السائدة عند عدد كبير من الشعوب وأنماط التفكير الإنساني في بعض مراحل تطوره - المحرر.

(*) صفوت كمال، خبير الفنون الشعبية بوزارة الإعلام بالكويت، عضو هيئة الأنثولوجيا والفولكلور الدولية.

(١) الكسندر كراب، علم الفولكلور، ترجمة رشدي صالح، دار الكتاب العربي، القاهرة سنة ١٩٦٧، صفحة ٤٠٩. هذا التصور بتقطيع القمر إلى أجزاء صغيرة تتحول إلى نجوم، يذكرنا بالنادرة التي تروى عن جحا حينما سئل يوماً : أين يذهب الهلال حينما يظهر الهلال الجديد، فأجاب بأنه يقطع قطعا صغيرة وينثر في السماء نجوماً.. أو في نادرة أخرى، بأنه يدق ويصير رفيعا يصنع منه البرق في الشتاء.

راجع : عبد الستار فراج، أخبار جحا، مكتبة مصر ص ١٥٤، ص ١٥٠.

(٢) Encyclopedia of Religion & Ethics. Edited by : James Hastings. Edinburgh. 1954. T.& T. Clark. Vol 4.p 227.

(٣) راجع المقال :

J.C.Davis, Mythological Influences on the first emergence of Greek Scientific and Philosophical Thought.

"Folklore" (review) Vol. 81. Spring 1970. London. published by the Folklore Society. p.p.23-66.

(٤) في الأساطير الأفريقية نجد حكاية تروى أن الإنسان القديم جدا الذي اسمه أونكولونكولو Unkulunkulu بزغ أصلا من سرير من البوص reed-bed وهو الذي علم الإنسان فيما بعد فنون الحياة.

(٥) للماء قداسة معينة حتى الآن بين كثير من الشعوب فهو يستخدم للتطهر من الآثام وكذلك لطرد الأرواح الشريرة التى تسكن جسد الإنسان .. وخاصة الماء الجارى بالأنهار أو ماء بعض الآبار ..

راجع كتاب : مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي - للمؤلف - الكويت - ١٩٦٨ . ص ٩٠-٩١.

وكذلك مقال :

A.W.Moore, Water and well - worship in Man. "Folklore" (review), Vol. V, London 1894, p.212.

(٦) Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol. IV, pp.163-167

(٧) المرجع السابق ص ١٧٤ وفي اعتقادات الديانة البرهمية - الهندية ، نجد أن الماء كان في البدء ولاشيء غيره ومنه خرجت بيضة . والبيضة تنكسر نصفين ، نصف فضي ونصف ذهبي ، النصف الفضي أصبح الأرض والنصف الذهبي أصبح السماء . نفس المرجع ص ١٥٧ .

(٨) Stith Thompson, The Folktale, New York 1946, Holt, Rinehart and Winston, p.311.

(٩) بعض الحكايات والأساطير تجعل الشمس مذكراً والقمر مؤنثاً . مثل ما في الأساطير اليونانية ، فأبولو إله الشمس وديانا إلهة القمر . كما أن أبولو هو إله الشعر والموسيقى وراعي الرعاة وهو مؤسس المدن . وفي الأسطورة الأفريقية نلحظ أن الشمس تقيم بناء أيضاً ليأتى البحر ويقيم فيه ولكن طوفان الماء يغطى الأرض جميعاً .

(١٠) هذه الحكاية الأسطورية شائعة بين قبيلتي Ibibio, Efiki بجنوب نيجيريا على شاطىء ساحل العاج .

راجع نص الحكاية في كتاب :

African Folktales & Sculpture, London, 1965, Secker & Warburg, p.41.

(١١) راجع نص الحكاية في كتاب :

African Myths and Tales, edited by Susan Feldmann, New York 1963, Dell publishing Co pp.71-74.

(١٢) القمر عند البوشمان كائن مذكر.

(١٣) راجع دراسة Alice Werner عن African Mythology في المجلد السابع من:
The Mythology of all Races. New York 1964. Cooper Square Publishers. Vol. VII., p. 227.

وما بعدها. وكذلك النص الكامل لهذه القصة في كتاب:
African Folktales and Sculpture. pp. 81-84.

(١٤) القمر في هذه الحكاية مؤنث والشمس مذكر كما تعطينا تخيلا للشمس بريشها وكأنها طائر في السماء.

(١٥) New Larousse Encyclopedia of Mythology. Introduction by Robert Graves. London 1969. Paul Hamlyn. pp.474-475.

(١٦) Stith Thompson. The Folktale. pp. 305-306

(١٧) انظر القرآن الكريم - سورة الأنعام الآيات ٧٥-٧٨ بالنسبة إلى موقف إبراهيم عليه السلام من الشمس والقمر والنجوم.

(١٨) Richard M. Dorson. The British Folklorists. a History. London 1968. Routledge & Kegan Paul.

وكذلك مقاله عن دراسة موضوع كسوف الشمس.
The Eclipse of Solar Mythology

المادة نشره في كتاب: The Study of Folklore

إعداد: Alan Dundes. Englewood Cliffs. 1965. Prentice - Hall. pp.57-83.

(١٩) The Encyclopedia Americana. New York 1963. Vol. 19. p. 675 b.

(٢٠) A. Seidenberg. **The Separation of Sky and Earth at Creation.** "Folklore". (review) Vol. 80. Autumn 1969. London. published by the Folklore Society pp.188-196.

(٢١) راجع:
Stith Thompson. The Folktale. pp. 311-312.

(٢٢) المرجع السابق ص ٣١٥. يقصد بتتابع البرد والحر تتابع فصلي الشتاء والصيف.

(٢٣) راجع ص ٢٣٨ من هذا البحث

(٢٤) Stith Thompson, The Folktale, p. 315.

(٢٥) Encyclopedia of Religion & Ethics, Vol. IV, p. 171.

(٢٦) راجع أسطورة برج السماء ص ٤١ من كتاب : African Myths and Tales . p. 41.

(٢٧) Rollo Ahmed, The Black Art, London 1966, Arrow Books, pp. 176-177

(٢٨) الدكتور أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الثاني، الأنساق، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧ ص ٥٣٠ . وكذلك مقاله «نظرة البدائيين إلى الكون، دراسة في الأنثروبولوجيا المقارنة «مجلة عالم الفكر»، المجلد الأول العدد الثالث - ١٩٧٠ - الكويت .

(٢٩) سبق أن ذكرنا أن قوس قزح في الأساطير اليابانية يفترض أنه الجسر العائم الذى نزل عليه ايزاناجي وايزانامي من السماء العليا .

(٣٠) راجع :
C.D. Darlington, The Evolution of Man and Society, London 1969, George Allen and Unwin, pp. 650-652.

(٣١) في بعض الاحتفالات الطقوسية الراقصة يرتدى مجموعة من الناس في سيراليون جلد الفهد، ويقلدون الفهد في حركاته وخطواته التلصصية . إذ يعتقدون أصلا أنهم ينتسبون إلى الفهد Ju-Ju (الطوطمية سائدة في المجتمع الأفريقي) ويتجولون في الغابات بنفس طريقة الفهد في الحذر والسكون ويهاجمون ويقتلون معتقدين ان روح الفهد Ju-Ju قد تقمصتهم فأصبح كل واحد منهم فهدا . ويتصرفون على أساس أنهم حيوانات مفترسة لا بشر .
Rollo Ahmed, The Black Art, p. 175.

(٣٢) «خال الأغريق درب اللبانة أن إحدى آلهتهم كانت ترضع وهي نائمة، فانداح اللبن من ثديها على رقعة السماء، وهي بالليل فكانت المجرة . . أما العرب فأسموها درب التبانة . والتبان بائع التبن خالوا كأن التبانة حملوا تبنهم فوق السماء فتساقط منهم حتى ملأ الطريق وبذلك كانت المجرة» .

راجع : الدكتور : أحمد زكي . مجرتنا «درب اللبانة» مجلة العربي – العدد ١٤١ – الكويت، أغسطس ١٩٧٠ ص ٤١ .

(٣٣) Stith Thompson, **The Folktale, p.** 237

(٣٤) انظر : Christine Chaundler, **A year Book of the Stars,** London 1956, A.R. Mowbray & Co. pp. 24-25 and 11-16.

(٣٥) The Mythology of All Races. p. 231.

(٣٦) المرجع السابق ٢٢٨ .

(٣٧) راجع أ : مقال : Marcel Griaule عن الفن الأفريقي في : African Art. Larousse Encyclopedia of Prehistoric & Ancient Art, London 1967, Paul Hamlyn., p.81

(ب) وكذلك : كتاب : الفن الأفريقي Tibor Bodrogi, Sztuka Afryki

(ج) دراسة : James Johnson Sweeney عن النحت الأفريقي بكتاب : African Folktales and Scupture.

(د) Chefs-d' Oeuvre des arts indiens et esquimaux du Canada. Paris 1969. Société des Amis du Musée de L'Homme.

المراجـــع

1. **African Folktales & Sculpture.** Introducttion James Johnson Sweeney. London 1965, Secker & Warburg.
2. **African Myths and Tales.** ed. by : Susan Feldmann. New York 1963, Dell Publishing Co.
3. Chaundler Christine. **A Year- Book of the Stars.** London 1956, A.R. Mowbray & Co.
4. **Chefs-d' Oeuvre des arts indines etes Iquimaux du canada.** Paris 1969. Societe des Amis du Musee de L'Homme.
5. Darlington C.D. **The Evolution of Man and Society.** London 1969. George Allen and Unwin.
6. Davis J.C. **Mythological Infuences on the first emergence of Greek Scientific and Philosophical Thought, in "Folklore"** (review), Vol. 81 London, Spring 1970. published by the Folklore Society.
7. Dorson Richard M. **The British Folklorists. A History.** London 1968, Routledge & Kegan Paul.
8. Dundes Alan **The Study of Folklore.** Englewood Cliffs 1965, Prentice - Hall, Inc.
9. **Encyclopedia Americana (The).** New York 1963, Americana Corporation, Vol. 19- Mythology.
10. **Encyclopedia of Religion & Ethics.** ed by : James Hastings. Edinburgh 1954, T&T. Clark. Vol. IV- Cosmogony and Cosmology.
11. Griaule Marcel. **African Art.** In Larousse Encyclopedia of Prehistoric & Ancient Art, London 1967. Paul Hamlyn.
12. Moore A.W. **Water and Well - Worship in Man.** in "Folklore" (Review). London 1894, Vol. V.

(13) **New Larousse Encyclopedia of Mythology.** Introduction by : Robert Graves. London, 1969. Paul Hamlyn.

14. Rollo Ahmed **The Black Art,** London 1966, Arrow Books.
15. Seidenberg A. **The Separation of Sky and Earth at Creation,**in "Folklore". (review), London, Autumn 1969,

Vol. 80. Published by the Folklore Society.

16. Thompson Stith. **The Folktale.** New York 1946, Holt Rinehart and Winston.
17. Tibor Bodrogi **Sztuka Afryki (African Art)** Wroclaw 1968, (Poland) Zaklad Narodowy im. Ossolinskich.
18. Werner Alice. **African Mythology, in The Mythology of All Races.** New York 1964. Cooper Square publishers. Vol. VII.

الفصل الثاني

الرمز والأسطورة والشعائر
فى المجتمعات البدائية

منذ بداية القرن التاسع عشر وزيادة الاكتشافات عن أماكن ومجموعات بشرية لم تكن معروفة من قبل؛ ظهر جيل من العلماء يهتم بدراسة الأساطير وعادات وتقاليد الشعوب، فى محاولة لاستجلاء بعض كوامن الموروثات الثقافية، والممارسات الطقوسية الشائعة فى حياة الناس، من خلال فهم رموز هذه الممارسات الطقوسية.

واتجه عدد من العلماء إلى محاولة إدراك ما كان، وتفسيره فى ضوء ما هو كائن، وإقامة أسلوب نقدى معقول فى تحديد سبل معرفة نظرة الإنسان القديم إلى الكون، وتفسيره لمواضيع الوجود الذى أحاطه..

وكذلك وضع منهج علمى فى استقراء ما هو كائن بالفعل فى عادات بعض الشعوب التى احتفظت بموروثاتها الثقافية فى عزلة عن باقى الحضارات الإنسانية.

وقد أدى اكتشاف المجموعات البشرية التي تعيش حياة فطرية بدائية، وفى عزلة عن غيرها من المجتمعات فى جزر المحيط الهادى وآجام استراليا وفي غابات افريقيا، إلى محاولة معرفة طبيعة الفكر البشرى سواء أكان قديما فى حضارات سادت ثم بادت أم فى أجيال حية من مجتمعات إنسانية ظلت محافظة - لظروف بيئية وطبيعية- على ما كانت عليه من أنماط فى السلوك والحياة منذ آلاف السنين.

واتجه كثير من الباحثين والفنانين والدارسين إلى محاولة استكناه بعض المعارف التاريخية عن حياة الإنسان قديما من خلال استقراء حياة الشعوب التي ما زالت تحيا على فطرتها البدائية.

وقد واكب الاتجاه فى دراسة الأساطير القديمة اتجاه آخر فى دراسة أساطير وخبرات وشعائر الشعوب البدائية التي ما زالت تعيش للآن محافظة على موروثاتها الثقافية البدائية.

ومن أهم أعلام الاتجاه العلمى فى دراسة الأساطير فى القرن

التاسع عشر ماكس مولر Max Muller وأندرو لانج Andrew Lang وأدلبرت كون Adalbert Kohn ووليام جل William Gill وولتر كيلى Walter K. Kelly وغيرهم من رواد الدراسات الأسطورية، وعلم الأساطير المقارن مثل روبرت براون (الصغير) Robert Brown "Junior" الذى بين أثر الثقافات السامية القديمة على الأساطير الهيلينية الدينية وبخاصة تلك الأساطير التي وفدت من شواطىء الفرات والنيل.

وكما حاول مولر أن يبين الصلة بين آلهة اليونان وآلهة الهند فقد حاول براون المتخصص فى التراث المصرى والآشورى، أن يربط أساطير اليونان بثقافة وأساطير الشرق الأدنى(١).

أما الاتجاه الثانى الذى اتجه إلى دراسة أساطير ومعتقدات الشعوب البدائية فمن رواده، ادوارد برنت تيلور Edward Burnet Taylor الذى يعد أبا لعلم الأنثروبولوجيا وعراب - Godfather مدرسة الفولكلوريين كما يصفه دروسون(٢). فدراسات تيلور الرائدة عن التاريخ المبكر للإنسان (١٨٦٥م)(٣) قد أوجدت الحد الفاصل بين علم الفولكلور وعلم الأساطير. كما وضع تيلور تعريفا أو تفسيرا للفولكور بمعنى «الثقافة الحية». وقد استلهم هذا التعريف من ملاحظاته

ودراساته لثقافة الشعوب البدائية.

كما أن الدراسة الموسوعية التى وضعها جيمس فريزر Sir James George Frazer (1854-1911) عن العبادات القديمة وتقاليد الشعوب البدائية فى كتابه الغصن الذهبى Golden Bough (١٨٩٠م)(٤) تعتبر مرجعا أساسيا فى دراسة ثقافات هذه الشعوب.

ويذهب جيمس فريزر إلى أنه لا اختلاف من البداية إلى النهاية بين الفكر فى خطواته البدائية الأولي وأسمى النهايات التى يبلغها فهو متجانس ومطرد.

وطبق فريزر هذا المبدأ الأساسى فى تحليله للسحر فى الجزءين الأول والثانى من كتابه(٥) «واعتقد فريزر أن أى إنسان يقوم بطقوس سحرية لا يختلف من حيث المبدأ عن أى عالم يقوم بإجراء تجربة فزيائية أو كيميائية فى معمله، فلا اختلاف بين الساحر وطبيب القبائل البدائية من حيث المبادىء التى يلجآن إليها فى تفكيرهما وعملهما».

كما أن تايلور أنكر وجود ما يسمى بالعقلية البدائية على الرغم من وجود حضارة بدائية كما اعتقد تايلور أيضا أنه لا وجود لاختلاف أساسى بين عقلية البدائي وعقلية المتحضر.

وتبدو أفكار الهمجي للوهلة الأولى وهمية، ولكنها ليست بأية حال مضطربة أو متناقضة ويتصور الإنسان البدائي منطقه معصوما من الخطأ على نحو ما، ولا يعتمد الاختلاف الكبير بين تفسير البدائي للعالم وتصورنا له على «صور الفكر» أو قواعد البرهان والاستدلال ولكنه يعتمد على «المادة» أو المعطيات التي تنطبق عليها القواعد. وبمجرد فهمنا لطابع هذه المادة، فإننا سنكون في موقف يساعدنا على وضع أنفسنا موضع الإنسان البدائي أو الهمجي، وأن نفكر في أفكاره وننفذ في مشاعره، وهذه الرؤية الفلسفية لفكر الإنسان البدائي كانت وما زالت موضع حوار فكرى بين كثير من المفكرين. ما بين مؤيد لذلك أو معارض له باعتبار أنهما لا تتبعان نفس النوع، والاختلاف بينهما بعيد للغاية. ومن العبث البحث عن مقياس تشترك فيه العقلية البدائية مع العقلية المتحضرة(٦).

مع هذين الرائدين الكبيرين في دراسة ثقافة الشعوب البدائية، يقف أيضا مالينوفسكى تلميذ وصديق فريزر. فدراساته الميدانية التي قام بها قد ساعدت على تطوير مناهج البحث الاثنوجرافية، والنظر إلى وظيفة هذه الثقافات باعتبار أن الاحتياج الثقافى هو مجموعة كبيرة من الظروف التى يجب

إشباعها إذا أريد للمجتمع أن يبقى، ولثقافته أن تستمر[٧].
كما أن دراسته عن السكان الأصليين لجزر المحيط الهادى «ملاحى المحيط»[٨] تعتبر من أهم الدراسات الأثنوجرافية التي وضعت عن سكان هذه الجزر التي اكتشفت فى أواخر القرن الثامن عشر، والتي سنتناول بالحديث بعضا منها عند عرضنا للكتابين اللذين بين أيدينا عن الشعوب البدائية. فقد ظلت هذه الشعوب فى بعض جزر المحيط الهادى وفى أحراش استراليا وفى غابات أفريقيا السوداء - تعيش فى حالة من الثبات الثقافى دون تغيرات واضحة أو كبيرة، ومحتفظة بأوليات وبدائيات أنماط الحياة الإنسانية التي تعرفنا عليها من خلال اكتشاف بعض الكهوف، فى جنوب فرنسا، التى يرجع تاريخها إلى حوالى «٢٠٠٠٠ عام»، ومن خلال النقوش والرسوم على جدران هذه الكهوف أمكن للإنسان المتحضر أن يتعرف على جوانب من أنماط الحياة القديمة التي عاشها الإنسان فى العصر الحجرى. وقد تلاقت الصور المستنبطة من لوحات الكهوف مع واقع صور الحياة التى اكتشفها الإنسان المستعمر الجديد لحياة الشعوب التي تعيش فى أدغال افريقيا، أو فى منحدرات الأمازون أو الجزر المنعزلة فى المحيط، والجماعات البشرية التي

عاشت فى عزلة بشرية فى المنطقة المتجمدة الشمالية، كلها صور تلاقت فى أذهان الباحثين، مع تساؤلاتهم عن طبيعة الفكر البشرى فى نشأته الأولى. وعن واقع ومادة الصور الخيالية التي نسجتها أقاصيص الأولين وأساطير الحضارات القديمة العريقة.

كما أن محاولة الربط بين موضوعات الأساطير القديمة وأساطير الشعوب البدائية تجد صعوبات شتى. فعلى الرغم من حدوث تماثل بين بعض أساطير الشعوب القديمة، بعضها مع بعض، وبين أساطير الشعوب البدائية وممارساتها الطقوسية، إلا أننا فى كثير من الأحوال نجد تباعدا بين الصور التي تشخصها هذه الأساطير أو تلك..

فأساطير العالم القديم كما يرى البعض إنما تمثل واحدة من أعمق منجزات الروح الإنسانية. وهو الخلق الملهم لعقول شاعرية خيالية موهوبة سليمة، لم يفسدها تيار الفحص العلمي ولا العقلية التحليلية. ولذلك كانت مفتوحة وعرضة لتأملات كونية عميقة احتجبت عن الإنسان المفكر الحديث بحكم حدوده المقيدة ومنطقه الجامد الذى لا روح فيه.

على أن هناك من الباحثين المحدثين من ينظرون إلى الأساطير كأنها روايات خرافية وهمية ذات منزلة فكرية وروحية ضئيلة،

أى أنها نتاج صبياني لخيالٍ مهوش نزق.

ويرى غيرهم أن الأسطورة ترتبط بالمناسك والشعائر وأن الأسطورة لم تزد على أن تكون - كما لو كانت - مناسك منطوقة، بجانب هؤلاء، نجد بعضا من علماء النفس يرى فى الأساطير القديمة ذخائر من دوافع ذات طابع أولى بدائى تكشف العقل الباطن الجماعى للإنسان.

ومن ناحية أخرى فهناك من النحاة وفقهاء اللغة من اقتنع بأن الأسطورة «مرض فى اللغة» وأنها نتاج لمحاولات الإنسان العقيمة السخيفة الضالة للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، ووضع ما لايمكن التعبير عنه فى ألفاظ(٩). وقد تعيش الممارسة بعد اندثار المعتقد الذى أنشأها، وقد يستمر الطقس أو الممارسة بفضل روح المحافظة الغريزية فى الإنسان، بينما ينسى السبب أو الغرض الأصلى لهذا الطقس أو تلك الممارسة. وكثيرا ما يخترع سبب جديد وتبرير لهذه الممارسة.

وقد يحدث العكس كما يقول «كراب» إذ تندثر الممارسة، في حين تبقى المعتقدات النظرية الخالصة مدة أطول. وقد يحدث العكس - كما يقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس إذ تنشأ أسطورة جديدة لتفسير الشعيرة المجهولة الأصل(١٠).

وفي مجال دراسة فكر وممارسات المجتمعات البدائية يحتاج الباحث إلي رؤية أكثر شمولية لفهم أساطير وطقوس ومناسك هذه المجتمعات فأشكال الممارسات الطقوسية هي التى تعطينا التصور الملموس والتجسيد المادى للرؤية التأملية والقدرة الشاعرة لدى الإنسان البدائي، فى إدراك وجوده، والوجود المحيط به، وإبداعاته فى تخيل أشكال القوى التي تحيط وجوده.

فالإنسان البدائى يرى وجوده حقيقة واقعة ليست موضع شك أو مجال تساؤل فلسفي.. كما أن عالم المجردات ليس منفصلا عن عالم المحسوسات.. فالرموز والطقوس هى «تشييء» وتجسيد لهذه المجردات، كما أنها أيضا عملية Process تحقيق وجودى لهذه المجردات، كما أن المجردات هى تصور خيالى لما هو ممكن حدوثه بالفعل.. فالمعتقدات الروحية والعادات اليومية وثيقة التداخل. ومهمة الباحث الإثنولوجي، هى الكشف عن العلاقة القائمة بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي. ويرى ليفى شتروس أن الأساطير والحكايات الجارية فى الحياة هى المدخل المباشر لفهم معقول للعناصر غير المفهومة فى بعض أشكال الإبداع الشعبى، والرموز التشكيلية لدى بعض المجتمعات. فالأساطير والحكايات هى التى تقودنا لفهم هذه الرموز وتفسيرها.

إن جهود الأثريين معْ جهود الاثنوجرافيين سوف تساعد في إلقاء الضوء على العناصر المبهمة من ثقافات الشعوب[١١].

كما أن الطرز الثقافية التي تحدث في أشكال متماثلة جدا في كل مجتمع - ونظرا لأنها تتركز حول استقطابات بسيطة - فإنها تستخدم لتتمم وظائف اجتماعية مختلفة في جماعات مختلفة[١٢].

والإنسان البدائي بإلهاماته الفطرية، حاول أن يضع تفسيرات للظواهر الطبيعية، وقد وضع حلولاً جزئية لمشكلة الوجود، وجوده هو والوجود المحيط به. يدفعه إلى ذلك حب الاستطلاع أو الرغبة في الكشف، تلك الرغبة التي لم تفارق الإنسان منذ لحظة الاندهاش الأولى التي بزغ منها الفكر الأسطوري في محاولة تفسير ما يراه، وإدراك ما لايلمسه. إلى أن أقام جسرا - عصرنا الحاضر - من خبرته التكنولوجية بين عالمه المحسوس والعالم المرئي. كما حقق الإنسان بواسطة وسائل الاتصال الحديثة كثيرا مما كان يتطلع إليه، ولا يستطيع تحقيقه، وبعضا مما تخيله ولم يقدر على تحديد تفسير منطقي لخياله عنه.

بل إن كثيرا من الصور الأسطورية الخيالية أصبح لها وجودها

الطبيعي والواقعي في عالمنا العلمي والطبيعي المعاصر.

فالإرهاصات العلمية التي كمنت في الفكر البدائي أو المتوحش "The Savage Mind" قد أمكن في عصرنا هذا كما يقول ليفي شتروس (١٩٦١م) أن تتحقق في واقعها الصحيح(١٣).

والفكر البدائي برموزه وأساطيره وممارساته الشعائرية كان موضع اهتمام كثير من المتخصصين بالدراسات الأنثروبولوجية والأساطير والحكايات والخرافات.

كما أن حياة الإنسان البدائي وطرائق معيشته أثارت اهتمام الباحثين الاثنوجرافيين وبخاصة فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وتوافر أساليب الاتصال بهذه الجماعات، بعد أن مهد لها جيل كامل من الباحثين الاثنولوجيين والمبشرين وحكومات «البيض» الاستعمارية، التي حققت سيطرة على كثير من هذه الشعوب البدائية وأمكن دراسة لغاتها وعاداتها واقتناء الكثير من نماذج فنونها التطبيقية ذات القيمة الفنية العالية(١٤).

وفي السنوات القليلة الماضية ظهر اهتمام آخر وجديد في نفس الوقت بعادات وتقاليد الشعوب البدائية. ومحاولة إدراك ما تتضمنه ممارسات هذه الشعوب المعاصرة، من مكونات

ثقافية، مع دراسة - أيضا- عوامل التغير الثقافي التي مرت بها هذه المجتمعات ونتائجها بعد أن خضعت هذه المجتمعات أو تلاقت مع الثقافة الأوروبية الوافدة أو من خلال عمليات التداخل الثقافي.. ومن بين الكتب التى صدرت حديثا، هذان الكتابان اللذان تناولهما بالعرض والتحليل.. والكتاب الأول أهمهما وأحقهما بالدراسة، فهو محاولة علمية لباحث أنثربولوجي متمكن من مادته وخبرته الميدانية في جمع المعلومات من رواتها وممارسيها الأصليين. ويهدف من بحثه إلى محاولة معرفة المنطق الاجتماعي الذى يشكل نظام الحياة بين سكان جزيرة كارافار Karavar. تلك الجزيرة الصغيرة التى يبلغ طولها ميلا واحدا تقريبا وعرضها حوالى نصف ميل ويبلغ تعداد سكانها حوالى ٢٢٥ نسمة وتغطيها أشجار جوز الهند. كما توجد مساحات صغيرة من الأرض تنمو فيها البطاطا الحلوة. أما معظم طعام سكان الجزيرة فإنه يصل إليهم من جزيرة أولو Ulu المجاورة لهم، والجزر المجاورة للجزيرة لا تبعد عنها أكثر من ميل واحد. ويسهل التنقل بينها بالقوارب الصغيرة.

وتقع جزيرة كارافار شمال نيو غينيا New Geinea. وقد قام

ايرنجتون Errington, F.K. بدراسته الميدانية هذه خلال عام ١٩٦٨ - تساعده في بحثه زوجته السيدة شيلي التي أهدى إليها الكتاب. وفي خلال المدة من يونيه إلى يوليو ١٩٧٢ قام ببحث ميداني آخر وساعده فيه الباحث ريتشارد ساندهوس Richard C. Sandhaus ويشغل حاليا الاستاذ ايرنجتون وظيفة أستاذ مساعد علم الانثربولوجي في كلية أمهريست Amherst College. وفي الواقع أن دراسة مثل هذه المجتمعات التي تعيش على فطرتها الطبيعية منذ آلاف السنين تحتاج من الباحث جهدا غير يسير وتتطلب ممن يتصدى لدراسة مكوناتها الثقافية ونظمها الاجتماعية ملاحظة دقيقة وادراكا واعيا لأشكال السلوك اليومي، ودلالات الممارسات الطقوسية لهذه الجماعات، وأنماط العلاقات الاجتماعية التي تكون بنية ثقافتهم وطرائق تفسيرهم للحياة.

وقد لاحظ ايرنجتون أن معظم ما يمارسونه من شعائر، إنما تمارس من أجل تأكيد «النظام» في حياتهم الاجتماعية وحماية أنفسهم من «الانزلاق في حالة الفوضى».

فهم يرون حياتهم الاجتماعية جهدا مستمرا لتطبيع أنفسهم وغيرهم على التوافق الاجتماعي وتسيير غرائزهم

ونشاطاتهم في مجرى سوى من العلاقات مع بعضهم البعض.

وتتمثل هذه النظرة الاجتماعية في معتقداتهم حول طبيعة الإنسان وطبيعة «النظام».

فطبيعة الإنسان ترتبط بطبيعة الحيوان، أما طبيعة النظام فهي السيطرة على طبيعة الحيوان.

ومعتقدات الكارافاريين تكشف عن طبيعة الإنسان وطبيعة النظام، فيما يجعل هذا المجتمع ووجوده الاجتماعي كائنا بالفعل. وهذه المعتقدات رغم أهميتها - إلا أنها لا تعبر عن مجهود إدراكي واع من التفكير النظري عن طبيعة المجتمع، ويرجع ذلك إلى أن إدراكهم لحقيقة وجودهم لم يكن أبدا موضع شك بالنسبة لهم. فإيمانهم بوجودهم هو شيء بدهي وضمني، وليس شيئاً موضع شرح أو في حاجة إلى توضيح.

كما تناول الباحث أيضا وجهة نظر الكارافاريين عن الماضي، عن الزمن السابق.. والماضي أو الزمن السابق عندهم، هو هؤلاء الذين ذهبوا أولا ،هؤلاء الذين كانوا يعيشون في حالة الفوضى بدون نظام. وفي حالة من اللامجتمع، هؤلاء السابقون كانوا فاشلين في إمكانية الرؤية بوضوح «كانوا في حالة المومبوتو» Momboto ومن يعيش في المومبوتو لا يستطيع الرؤية بوضوح.

والأسلاف الذين وجدوا فى الزمن السابق كانوا كالحيوانات الضارية، وحياتهم كانت مرتبطة بطبيعة الإنسان من جشع وعنف. ويتصور الكارافاريون هذا المومبوتو بأنه ليس من طبيعة بشرية بل هو شيء مغاير للطبيعة البشرية. فهو أقرب للحيوانات الضارية.. وهذا المومبوتو رمز الفوضى، قد انتهى بعد بضعة أيام من وصول القس جورج براون George Brown فقد كان جورج براون أول مبشر أقام فى هذه المنطقة - جزيرة يورك «أكبر جزر هذه المنطقة» Duke of York Island فى عام ١٨٧٦.

ويرى ايرنجتون في مقدمة كتابه هذا، أنه حينما وصل جورج براون لأول مرة إلى هذه المنطقة، وجد هؤلاء الذين يعيشون على الشاطئ مجموعة من الوحوش تريد تمزيقه. فظل هو ومن معه على السفينة فى البحر يغنون تراتيلهم لمدة ثلاثة أيام متواصلة ثم وضع يده - كما يتصور الكارافاريون - فى الماء، فحول الماء من حار إلى بارد، ثم نزل براون على الشاطىء ومضى غير هياب ولا خائف، ومع وصوله انتهى الموموبوتو، وبدأت فترة جديدة من حياة الكارافاريين، وانتهت حياة الزمن السابق.. وذهبت هذه الطبيعة غير البشرية مع هؤلاء الذين ذهبوا.

من هذا التصور يمكننا إدراك مدى تأثير التبشير أو غزو الرجل الأبيض لهذه المناطق. فالتصور لحياة المومبوتو ووصول براون، يقدم لنا تفسيرا لأشكال التغير الاجتماعي - في سلوك وعادات هذه المجتمعات- التي حدثت في هذه المجتمعات البدائية. وعلى الرغم من مضي قرن كامل على وصول براون وتابعيه، ما زال الكارافاريون وغيرهم من سكان الجزر والآجام الاسترالية يعيشون معيشتهم البدائية، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من جزر المحيط الهادى وأفريقيا السوداء... المومبوتو انتهى!!.. وتحول البعض منهم إلى أدوات عمل تخدم المستعمر الأبيض الوافد وبقى المستعمر الأبيض، وتطور واستفاد.. وهم أيضا بقوا،و لكن لم يستفيدوا، بل ظلوا كما هم ومن انتقل منهم من حياته الأولية البسيطة إلى حياة المدينة الوافدة، روضه الإنسان الأبيض ليعيش في سلام معه وفق شروطه هو.. تابعاً له ووسيلة إنتاجية في الزراعة والمناجم والموانيء.

وكما قضى براون على المومبوتو (طبيعة الحيوان المتوحشة) أوجد أيضا نظاما للتبادل التجاري بالنقود الصدفية Shell Money وأصبحت الأصداف أهم شيء يعتز باقتنائه الكارافاريون.

ومنذ أن أتت العملة الصدفية Divara كما يسميها الكارافاريون انتهى المومبوتو، كما نظمت أيضا علاقات الزواج والروابط الأسرية من خلال شرطين أساسيين للمويتي Moiety، شطرى أ، ب. Moiety B، Moiety A والاسم مشتق من نوعين من الطيور هما Pikalambe، Maramar ونظمت العلاقات الأسرية على أساس نظام الخؤولة من حيث أنه مجتمع أمومي... وعلى أساس نظام الزواج من خارج الأسرة وهذا النظام الشطرى فى العلاقات الأسرية قد وفد مع المسيحية كما يقول الكارافاريون، كما أن التنظيم الاقتصادى وتنظيم الزواج من خلال النقود الصدفية Divara والتقسيم النصفى للأسرة Moietry قد نظما طاقة الإنسان ووجهاها إلى مجالها السوى.

وقد انتهج الأستاذ ارنجتون فى بحثه المنهج الوصفى التحليلى من خلال ملاحظاته المباشرة فى أثناء إقامته فى هذه الجزيرة الصغيرة ومن خلال ما جمعه وسجله من أهالى المنطقة من معلومات. كما أنه لم يلجأ إلى تفسير العلاقات القائمة فى البناء الاجتماعى لهذا المجتمع من خلال وجهة نظر المنهج البنيوى، بل رفض هذا المنهج باعتبار أنه لا يساعد على فهم طبيعة الحياة والنظم السائدة فى هذا المجتمع.

وقدم لنا ايرنجتون شرحا وافيا عن العلاقات الاجتماعية التي تسود هذا المجتمع ونظام السلطة داخل المجتمع والسلطة هنا تتمثل فى الرجل الكبير Big Man والرجل الكبير هو الذى يستطيع أن يحكم وينظم الآخرين.. وسلطته لا تعتمد على أساس القرابة أو كبر السن أو تعدد الأبناء أو بمكانته داخل عشيرته، بل تتحدد بقدرته على جذب الاتباع، وتعدد من يخضعون لسلطته ويتبعونه. وأتباع الرجل الكبير هم قرابته لأنهم أتباعه.. فالقرابة هنا لا ترتبط بصلات أسرية أو وراثية بل هي ترتبط بالقدرة على فرض النظام.

وتناول الكاتب فى كتابه مفهوم القوة وممارستها. وخصص لذلك الباب الأول من الكتاب وقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول وخصصه لموضوع القرابة والأمومية.

فالرجل الكبير يعرف بقدرته على اجتذاب اتباع له، ويعتبره أتباعه كأنه رئيسهم الأمومى بمثابة الخال، أخ الأم ونظرا لأنهم أتباعه فهم أقاربه، فهم ليسوا أتباعه لأنهم أقاربه بل هم أقاربه لأنهم أتباعه...

وقد تنظم الجماعات فى مجموعات صغيرة، وأصغر من المجموعة التى تنتمى إلى الشطر الأعلى المكون للجماعة التى

يكون فيها الخال، وهذه الجماعة تسمى ليتنج Liting وتتكون من خمسة عشر إلى ثلاثين شخصا، ما بين رجال ونساء وأطفال، الذين يعتبرون أنفسهم أقرباء من ناحية الأم. فصلات الدم ليست أساسا فى انتماء هذه المجموعة، كما أن صلات القرابة هذه يمكن أن تحدد. وجماعات الليتنج هذه قد تتحد وتكون الأبيك Apik والتى تسمى أحيانا Vunatara، وهم الذين ينتمون أيضاً لنفس الشطر من المويتى وهم أتباع الرجل الكبير.

وفى الفصل الثانى من الباب الأول يقدم لنا الأستاذ ايربجتن شرحا للعلاقات بين الذكر والأنثى.. بين الرجل والمرأة. فالرجال ينظرون إلى النساء باعتبارهن منجبات للأطفال. كما أنهن فى نفس الوقت عوامل تهديد لنظام المجتمع، لأن رغباتهن الجنسية تدفع الرجال للصراع مع بعضهم البعض. وتروى كثير من القصص عن كيفية تأثير النساء على الرجال فى حياة المومبوتو (العصور المظلمة) قبل وصول الديفارا Divara وفى غياب نظام العلاقات الزوجية فى الزواج من النصف الآخر من خارج الأسر الأمومية.

كما أن النساء ليس لهن نفس القوة والحيوية مثلما للرجال. ولذلك وضع نظام العملة الصدفية لينظم العلاقة بين الرجل

والمرأة.. كما يحذر الرجال أيضا مكائد النساء التى تسبب الصراع بين الرجال. كما أن الرجل قد يجمع بصعوبة ثمن عروسه ولكن في النهاية تهرب زوجته منه مع رجل آخر مما يثير الصراع بين الرجال من أجل استعادة الثمن الذى دفعه. ويشعر الرجال بتماسك أكبر مع بعضهم البعض لأن فى ذلك تحقيقا لانتصارهم على سلطة المومبوتو.

وفى هذا الفصل أيضا نماذج من العلاقات بين المرأة والرجل. فالنساء ينظر إليهن كزوجات لا كأمهات أو أخوات. كما أن الرجال ينظر إليهم كآباء وليس كأخوة للأمهات وعلى الرغم من الممارسات الطقوسية التى تميز الأمهات عن الزوجات فإن النظرة للمرأة كانت على أساس أنهن زوجات. وبخاصة قبل ظهور نظام النصفين وإنشاء مجتمع الخال.. والنظام الأبوى والأمومى يبدوان بشكل أكثر تداخلا فى المجتمع الكارافارى. كما يقدم ايرنجتون نماذج من المعلومات التي جمعها هو وزوجته عن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة. والتصور الشائع بينهم بأن المرأة تمتص الرجل وتسبب له الموت مبكراً. ولذلك يعد الرجال طعاما خاصا من زيت جوز الهند وأوراق شجر الموز ويضيفون إليه أحجاراً ساخنة، ثم يؤكل هذا الطعام مع الموز أو

الأرز، ليعيد للرجال قوتهم وبخاصة قوتهم الجنسية. والنساء ممنوعات من أكل هذا الطعام، حتى لا يثير شهواتهن فيسعين للاتصال بأي رجل. ويسمى هذا النوع من الطعام Polo، فشرب هذا الشراب «الرطب» السائل يجعل جلد الرجل نظيفا ويمنح جسده الحيوية والنشاط والشباب. ويرتبط هذا الطعام أيضا بممارسات سحرية تجعل الرجل محبوباً من النساء. بل يكاد البولو نفسه يكون فى طريقة إعداده نوعا من السحر، فهو يساعد الرجل على أن يأسر المرأة ويخضعها لسحره، كما أن للبولو فائدة أخرى فهو يحفظ الرجال والنساء من الانغماس مرة أخرى في حالة الفوضى التى كانت تحوطهم في الومبوتو.

ثم يقدم لنا الباحث فى الفصل الثالث من الباب الأول نظام المحاكمات بين سكان جزيرة كارفار. فالخروج على النظام يخضع للجزاء، والذي يحدد نوعية الجزاء نوعان من القضاء المحلى الأول هو Vurkurai court وهو الذى يختص بممارسة القوة، أما الثانى ويسمى Kilung فهو يهتم بتحديد القوة. والتناقض بين هاتين المحكمتين الشعبيتين يعبر عن الفاصل بين الحياة الطقوسية والحياة غير الطقوسية.

فالفوركوراى Vurkurai هى محكمة القرية التى تحكم.

وتفصل فى المشاكل التى تقوم بين الأشخاص، وأى شخص يمكنه المشاركة فى هذه المحكمة. فهى للفصل فى المشاكل بين الأفراد. فمثلا يمكن للأب فى هذه المحكمة أن يقاضى ابنه إذا كان الأب قد اشترى لابنه زوجة ولكن الابن بعد الزواج خاصم أباه، ولم يعد يتحدث معه أو يأكل أو يعيش معه. وإزاء ذلك تضايق الأب من تصرفات ابنه فلذلك يشكوه. كما قد تشكو الزوجة زوجها أمام هذه المحكمة، إذا حدث أن حطم الزوج، وهو فى حالة غضب، بعض ممتلكاتها الشخصية.

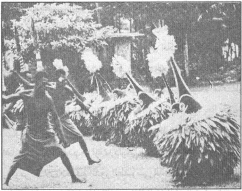
وفى هذه المحكمة يمكن أن تعاد الأمور إلى طبيعتها وتحل المشاكل بين أفراد القبيلة. كما تمثل الفوركوراى العرف السائد بين أعضاء القبيلة. ولكن سلطة هذه المحكمة لا تصل إلى الرجال الكبار كما أنها تعتمد فى أحكامها على العلاقة القائمة بين الأشخاص أكثر من كونها سلطة لها القدرة على تطبيق القانون العرفى. فالفوركوراى ليس لها القدرة على تطبيق هذه الأعراف أو تنفيذ أحكامها وتوقيع الجزاء بخاصة على الرجال الكبار، كما أنها لا تستطيع أيضا إرغام الشهود على الشهادة ضد المشكو منهم.

أما محكمة الكلينج Kilung فهى التى لها القدرة على توقيع

الجزاء وإقرار أحكامها لأنها تضم الرجال الكبار. وهذه المحكمة هى محكمة طقوسية، وهى تعتمد على قوة الأشخاص المشاركين فيها، فهم من الرجال الكبار. كما تعتمد فى سلطتها على العلاقة القائمة بين أعضائها أكثر مما تعتمد على عرف شائع أو قواعد تشريعية محددة، ولها القدرة على توقيع الجزاء على من يخرج على الطقوس والشعائر المتعارف عليها. فالرجال الكبار لديهم السلطة، فهم الذين ينظمون الحياة الاجتماعية، بل هم أنفسهم الذين يديرون محكمة الفوركوراي وهم أيضا الذين فى مقدورهم تغيير القوانين. ولكن هل لهم السلطة المطلقة؟ فى الواقع أن سلطتهم ليست مطلقة إذ يمكن لأحد الرجال الكبار أن يخرج على هذه المجموعة (من الرجال الكبار) إذا تميز بقوة جسدية أكبر منهم، واشتبك فى عراك معهم. وهذا التصرف من جانبه ينظر إليه كأنه «الومبوتو يعود من جديد» لا باعتبار أنه خروج على سلطة الرجال الكبار.

ويقدم لنا الباحث فى هذا الفصل من الباب الأول نماذج من المحاكمات كما يقدم حواراً مما دار فى إحدى هذه المحاكمات.

ومن خلال معرفة الدور الطقوسى الذى يقوم به الدكدك، والتوبوان Dukduk Tubuan فى حياة الكارافاريين يمكن تصور



التوبوان فى القرية

شكل النظام الذى تتطلبه الحياة غير الطقوسية .

والتوبوان والدكدك قناعان كبيران ومن يحوز على أحدهما بعد فترة تدريب طقوسية خاصة وممارسة المناسك والشعائر الخاصة بهما يصبح من الرجال الكبار .

ويشكل التوبوان رمزاً للأنوثة، أما الدكدك فهو يرمز للرجولة. وسوف نتحدث عن هذين القناعين فيما بعد عند ما ينتقل الفتى من طور الطفولة إلى طور الرجولة. فينتقل من مجتمع النساء حيث كان يعيش فى كنفهن إلى مجتمع الرجال حيث يتعلم أعمال الرجال ويشاركهم حياتهم .

ويختص الباب الثانى من الكتاب بالأسس الطقوسية لمفهوم وممارسة القوة. ويشتمل على ستة فصول تتابع مع الفصول الثلاثة التى تكون الباب الأول من الكتاب، والذى أوجزناه فيما سبق .

فبعد أن قدم لنا الكاتب أشكال المحاكمات فى محكمة الفوركوراى والكيلنج وسلطة الرجال الكبار فى هذه المحكمة يقدم لنا ـ فى الفصل الرابع وهو أول فصول الباب الثانى ـ الطقوس التى لابد أن يمر بها الشاب قبل أن يسمح له بالانضمام إلى مجتمع الرجال .

وتبدأ هذه الطقوس حينما ينتقل الصبى إلى أرض الرجال Tarain وهى منطقة مظلمة على الشاطئ الرملى تبلغ مساحتها حوالى ٤٠٠ ياردة طولا وعمقها حوالى ١٠٠ ياردة. وهى منطقة ممنوعة على غير من لم يذهب إليها من قبل. وهى مقسمة إلى أجزاء صغيرة، وهذه المنطقة ليست مخصصة للممارسات الطقوسية فحسب، بل للنقاش والحديث والاسترخاء أيضا.

والرجال الذين ذهبوا إلى هذه المنطقة. منطقة تجمع الرجال هم فقط الذين لهم حق المشاركة فى محكمة الفوركوراى والكلينج.

وتبدأ طقوس الانتقال إلى هذه المنطقة (المحرمة على من يدخلها من قبل) بأن يجلب الصبى من مجتمع النساء (حيث النساء والأطفال). إذ يكون الصبى مخبأ لدى نساء القرية. ويأتى الرجال لأخذه، وتقوم النساء بالدفاع عنه وضرب هؤلاء الرجال بالعصى والصراخ ضدهم. وعادة يستطيع الرجال التغلب على النساء وأخذ الصبى إلى التارايو حيث يبقى هناك عدة أسابيع..

فأخذ الصبى إلى منطقة ومجتمع الرجال هى أولى مراحل

إدخاله فى زمرة الرجال والانتقال به من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة. ثم يمر الصبى بعد ذلك بالمرحلة الثانية من الطقوس حيث يرى التوروان، فيكشف الإنسان الذى يتخفى فى شكل التوروان عن حقيقته، فيخلع القناع ويبدو بهيئته البشرية. ثم بعد ذلك يحدث نفس الشىء بالنسبة للدكدك .

وهذه المعلومات التى يتعرف عليها الصبى تكون البداية لانضمامه إلى مجتمع الرجال . سواء كعضو عامل أم كأحد أعضاء جماعة التوبوان أو الدكدك .

ثم يلى ذلك أهم مرحلة وهى المرحلة الرابعة والأخيرة فى طقوس انتقال الصبى إلى زمرة الرجال وهى شراء الدكدك، وتستكمل هذه المرحلة أيضاً بشراء التوبوان .

أول زيارة للتارايو :

وتوقيت الاحتفال بدخول الصبى أول مرة إلى التارايو يعتمد على عدة اعتبارات : منها، وجود كفيل له يتحمل مصاريف ونفقات هذا الاحتفال من طعام، مما يشترى مثل الأرز وغيره، ومما يجمع أو يصاد مثل البطاطا والموز والسمك. وعادة يكون الأب هو الكفيل فى تحمل نفقات هذا الاحتفال ويحرص الأب أن يكون هذا الاحتفال مبكرا. أما إذا كان الصبى يتيما فإن

زوج أمه أو أباه بالتبنى أو خاله هو الذى يتحمل مصاريف هذا الاحتفال وعادة يتأخر مثل هذا الصبى عن غيره فى الانضمام إلى التارايو . نظراً لأن الأب هو الذى يكون ـ عادة ـ أكثر حرصا على إدخال ابنه إلى التارايو فى سن مبكرة .

ففى التارايو يتعلم الصبى أعمال الرجال . والطعام الذى يقدم إليه يكون طعاما أعده الرجال الموجودون هناك . وبعد أن يتدرب الفتى على طقوس وأعمال الرجال يعود إلى النساء اللاتى كان بينهن قبل ذهابه إلى «التارايو» منطقة تجمع الرجال . وفى عودة الصبى من التارايو يقام احتفال راقص يشارك فيه الرجال وهم يحملون أو يرتدون الدكدك أو التوبوان . ثم يذهب كل صبى بمفرده إلى القرية حيث تقدم له الهدايا وكذلك تقدم هدايا للدكدك . والهدايا التي تقدم للصبى أو للدكدك تكون ملكا للصبى بعد ذلك . ونفس الشيء يتم بالنسبة لهؤلاء الذين اشتروا أيضاً التوبوان .

فمنذ دخول الصبى منطقة التارايو وقضاء فترة تدريبية على أعمال وطقوس الرجال ومشاهدة التوبوان والدكدك ثم شراء الدكدك أو التوبوان يصبح من الرجال الكبار وبعد حصول الفتى على الدكدك يكون مؤهلاً للزواج .

وقدم ارنجتون من النماذج والحالات التى شاهدها أو جمع معلومات عنها ترتبط بهذه الاحتفالات وبخاصة فى اثناء بحثه الميدانى خلال عام ١٩٦٨ .

وفى الفصل الخامس تناول المؤلف المراحل الأولى التى تتبع فى الاحتفالات الجنائزية وطقوس دفن الموتى . . والغاية الأساسية من هذه الاحتفالات هو الانتهاء من الموت عن طريق ما يؤدى من طقوس سحرية وتراتيل غنائية ، وبمجرد دفن الموتى يجب أن لا يفكر فيهم الإنسان .

فلكى تكون رجلاً كبيراً يجب أن تتصرف كما يتصرف الرجال الكبار . هكذا يقول الكارافاريون .

ويقام القبر من الحجر وعادة يقوم بعمله ابن أخت المتوفى لا ابنه على الرغم من إهمية وجود الابن . فالعلاقة الأسرية كما أشرنا علاقة أمومية وليست علاقة أبوية . ويقوم أحد أقارب المتوفى بتكاليف احتفالات الدفن وتكاليف الطعام الذى يقدم فى هذه الاحتفالات ، وعادة يتكون الطعام من البطاطا وثمار جوز الهند والموز والسمك وهى الأطعمة الشائعة ، كما يقوم أيضاً بتكاليف عمل حجارة القبر .

ويشـــرح المؤلف بعـــد ذلك فى الفـــصل الســـادس أهم

الاحتفالات التى تقام فى مناسبة الوفاة وهو الاحتفال الذى يسمى «ماتماتم» Matamatam وهو المأتم الكبير الذى يشارك فيه الدكدك والتوبوان. ويبدأ هذا الاحتفال بوليمة كبيرة يشارك فيها الرجال الكبار من عائلة المضيف (أهل الميت) وكذلك الرجال الكبار من الجماعات المجاورة الذين حضروا للمشاركة فى المأتم (ماتماتم). ثم فى الأيام التى تلى ذلك يعزل هؤلاء الرجال أنفسهم فى التارايو بعيداً عن النساء ويبدأون فى عمل الدكدك والتوبوان. وفى خلال هذه الأيام تجتمع النساء من الجماعات المجاورة مع النساء من الجماعة التى تقيم المأتم. ويقمن بإعداد طعام البلابلا Balabala الذى يتبادلانه خلال المأتم. ويدفع الرجال لهن ثمن هذا لطعام. كما يغنين أيضا أثناء الليل ويدفع الرجال لهن أيضا أجر غنائهن ....

وبعد أن ينتهى الرجال من إعداد الدكدك والتوبون ينتقلون مع الدكدك والتوبوان إلى القرية. وهذه المرحلة هى قمة احتفالات المأتم (ماتماتم) ويحضر جماعات أخرى من الجماعات المجاورة لتشارك فى الغناء والعزف على الطبل أو بمجرد الحضور فقط دون غناء أو عزف على الطبول. ويصل هؤلاء الرجال من الجماعات المجاورة بقوارب صغيرة، وحضورهم يكون فى شكل

جماعي، كمرافقين للتوبوان في احتفال يسمى ـ Kinivai .

وبعد وصول هؤلاء الضيوف والتوبوان. تقام حلبات للرقص مع الدكدك أو التوبوان في حلقات منفصلة. ويلقى على التوبوان والدكدك النقود الصدفية من القواقع، وهذه العادة، ضرب والقاء النقود الصدفية Divara على الدكدك والتوبوان تسمى توتوبور Tutubur .

وحينما يتم رقص التوبوان والدكدك وينتهي الرجال من غنائهم ورقصهم يعودون مع عازفي الطبول إلى التارايو حيث تنتظرهم وليمة كبيرة. وفي التارايو بعد أن يجتمع شمل الجميع وقبل البدء في تناول الطعام تقتل أشكال التوبوان الموجودة وبذلك تنطلق أرواحها من عقالها. وتسمى هذه المناسبة بوبولنج Pupulung أي قتل التوبوان وإطلاق سراح روحه.

ثم يعودون إلى القرية وهم يقفزون عبر الطريق إلى القرية، ويذبون الذباب بعيداً عن بعضهم البعض وبذلك يكونون قد طردوا روح الميت وتجردوا منها وعندئذ يتناول الرجال طعام الوليمة الأخيرة في هذا الاحتفال .

ويقدم ايرنجتون وصفا لمشاهداته الشخصية لمثل هذه



بيت الاحتفالات الطقوسية فى منطقة الرجال «التارايو»

الاحتفالات . كما يشرح نظام العلاقات الاجتماعية في هذه المناسبة والتنظيم الأسرى وعلاقته بطقوس هذه المناسبة الهامة .

ويتناول المؤلف بعد ذلك شكل العلاقات العامة بين الجماعات المختلفة في القرية مما يندرج تحت نسق العلاقات السياسية . فالرجل الكبير لابد أن يبرهن على أنه رجل كبير فعلا في علاقاته مع غيره وبخاصة مع ضيوفه ومع غيره من الرجال الكبار في الجماعات الأخرى . وكذلك في الاحتفالات التي تقام في مختلف المناسبات حينما تلتقي الجماعات مع بعضها البعض .

ثم شرح المؤلف بعد ذلك في الفصل السابع من كتابه هذا مفهوم « الأقنعة والقوة في طقوس الميلانزيين» وكيفية عمل التوبوان والدكدك إذ يبدأ العمل بإعداد رأس التوبوان وصباغة عينيه بواسطة رجل يختص بذلك . ثم يقوم باقي الرجال في التارايو - ممن سبق لهم مشاهدة التوبوان - بإعداد باقي أجزاء التوبوان من الريش وتزيينه . فعند صباغة العينين وتلوينهما يكون في قدرة الفنان الذى قام بذلك السيطرة على الروح الخطرة للتوبوان . إذ إنه يستطيع بتلوين العينين إحضار هذه الروح من بيتها القائم في الشمس الغاربة وإخضاعها تحت

سيطرة الإنسان. فغروب الشمس هو موطن الروح الوحشية للتوبوان. وبمجرد السيطرة على روح التوبوان الضارية الخطرة يحدث السلام وسلام التوبوان. وينتهى حينئذ كل شجار بين الناس ويعمل الجميع فى هدوء ونظام حتى الأطفال الصغار لا يبكون. فكما يروض الناس التوبوان يروضون هم أنفسهم.

ويشير الباحث فى هذا الفصل وفى هذه الفقرة بالذات إلى أنه لم يستطع التوصل إلى معرفة تصورهم عن طبيعة الروح التى تحل فى غروب الشمس.

ولذلك تعقد محكمة الكيلنج فى المساء غالباً فى التارايو تحت إشراف الرئيس المنظم للطقوس. وتظهر قوة التوبوان فى مثل هذه المحكمة. ولا يمكن فهم محكمة الكيلنج كما أشرنا من قبل بمعزل عن محكمة الفوركوراى أو بمعزل عن الحياة غير الطقوسية التى تنعكس وتظهر فى الفوركوراى.

فالكارافاريون يرون سلام التوبوان فى استقرار نظام الحياة الاجتماعية. ولذلك ففى محكمة الفوركوراى - يناقش موضوع الاثم ثم يقرر الجزاء. أما فى محكمة الكيلنج فيقرر الجزاء أولا ثم يناقش موضوع الإثم. فالفوركوراى تختص بطبيعة النظام الاجتماعى أى بموضوعات الحياة الاجتماعية لا الشعائر، أما

محكمة الكيلنج فتختص بالخروج على الشعائر أو الطقوس .

والتوبوان هو قناع يرتبط بالأنوثة ، أما الدكدك فهو قناع يرتبط بالذكورة .

والتوبوان على شكل طائر أما الدكدك فهو على شكل زهرة .

ويصف ايرنجتون في الفصل الثامن ، طرق وشعائر عمل التوبوان والدكدك وعمل التوبوان أو الدكدك . فهو عمل مقدس ويحتاج من القائمين عليه طهارة معينة . فيستحمون ولا يقومون بأي علاقة جنسية ، فإذا حدث أن أصاب قناع الدكدك أي تلف في الألوان فمعنى ذلك أن أحد الموجودين قد أقام علاقة جنسية سببت تلف الدكدك . ويلون الدكدك باللون الأحمر . كما أنه في أثناء عمل الدكدك لا يتصل الرجال بالنساء تأكيداً على قدرتهم على الاستغناء عن النساء وتعبيرا عن قدرتهم على إبعاد الومبوتو من حياتهم .

وبعد الانتهاء من عمل الدكدك يعبر الرجال عن فرحتهم بقدرتهم على تحقيق قوة ونظام مجتمع الرجال بإقامة احتفال راقص .

والدكدك هو مجرد زهرة ، إنه شكل بلا حياة ولا قوة ، فهو بلا روح ، على العكس من التوبوان . . ولذلك يعمل الدكدك

فقط حينما يكون التوبوان موجودا .

فالتوبوان هو النشاط . . والقدرة فى السيطرة على هذا النشاط «النظام» هما الشيئان الأساسيان فى الحياة . .

فإذا أمكن للدكدك (الذكر) السيطرة على التوبوان (الأنثى) تحقق التوافق فى الحياة «النظام والطاقة» ، فالتوبوان له قوة وخطر . . أما الدكدك فليس له أى سطوة أو خطورة وإن كان يحدث ذلك فى بعض الفترات القصيرة .

ومن ثم فإن معظم الشعائر والطقوس التى تقام للدكدك والتوبوان تحدد معالم العلاقة بين الرجال والنساء . وبين الرجال من نفس الجماعة وبين الرجال من جماعة أخرى وقوة الرجال وانتصارهم يظهران حينما يعيشون مع بعضهم البعض دون صراع .

فالرجل الكبير والديفارا والتوبوان ، ليسوا مجرد مدلولات بهيمية بدائية ، يمكن إدراكها دون شرح معانيها كما هى بالنسبة لممارسيها . فهذه المسميات هى ما تدل عليه بالنسبة للكارافاريين ، لذلك فإن التحليل البنائى فى الانثروبولوجيا الاجتماعية لا يسعف فى مثل هذه الحالات . لذلك كان من الأهمية معرفة كيف نفكر ـ كما يقول المؤلف- بمنهج غير

بنائي حتى نستطيع أن نتعرف على النظام الاجتماعى فى مثل هذه المجتمعات، التى تختلف فى ماهيتها، عن تلك المفاهيم التى تعود الأنثروبولوجيون التفكير من خلالها.

وفعلا فقد حاول المؤلف أن يفهم منطق مجتمع الكارافاريين بأسلوب مغاير إلى حد ما لأسلوب المفاهيم البنائية ومصطلحات البنائية الاجتماعية الشائعة بين عدد من الأنثروبولوجيين، وعلى سبيل المثال تبين أنه من خلال ترويض التوبوان يروض الكارافاريون أنفسهم. فالتوبوان ليس مجرد رمز لقدرة سيطرة الرجل الكبير على الآخرين بل هو رمز ووسيلة لإقامة النظام بين الذكور والأناث. كما أن الدكدك هو رمز ووسيلة لتحقيق الصلات الاجتماعية بين الرجال.

فالرمز ليس فى عزلة عن ما يرمز إليه. الرمز هنا له وجوده الحى الفعال لأن له وجودا فعليا فى الحياة. فالرمز هنا يخلق ما يصوره. فالكارافاريون ليس لهم نظرية سياسية مجردة فى علاقاتهم مع غيرهم من المجتمعات. وقد يرد ذلك إلى أن الرمز عندهم لا ينفصل عن التطبيق.

فمعنى التوبوان هو مجموعة عمليات يتم من خلالها تكوين التوبوان. ومن خلال هذه العمليات تتحقق العلاقة الاجتماعية.

فالشعيرة هنا والرمز يتصلان بشيء يرتبط بالمجتمع نفسه، فالمعنى والفعل عندهم يتصلان، والحياة الاجتماعية بمعناها الطبيعي تتضمن بالضرورة قيمتها.

وبهذه العبارة يختم ايرنجتون الفصل التاسع من كتابه الذى هو دراسة ميدانية دقيقة عن مفهوم الأقنعة والقوة فى مجتمع الكارافاريين، مع شرح مفصل للطقوس التى تمارس فى عمل هذه الأقنعة ووظيفة هذه الأقنعة وشعائرها فى الحياة الاجتماعية لمجموعة من السكان الأصليين فى إحدى جزر المحيط الهادى. عاش أهلها آلاف السنين على فطرتهم الأولى، وظلوا يمارسون أوليات الحياة حتى بعد دخول المستعمر الأوروبى إلى هذه المنطقة التى ظلت فى عزلة عن العالم إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر.

***

أما الكتاب الثانى الذى نتناوله بالعرض والتحليل فهو كتاب الشعوب البدائية[١٥] الذى وضعه روبرت فورنو ويتكون من عشرة فصول كل فصل منها تناول إحدى الجماعات الإنسانية التى تحيا حياة بدائية ونشعر فى بداية الصفحات أن الكاتب يتعاطف مع هذه الشعوب. ولكننا نعجب أحياناً من

تصنيفه لهذه الشعوب التي عاشت فى عزلة عن التقدم المدينى أو تلك التي لم تخضع لغزو الإنسان الأبيض وبخاصة حينما يتحدث عن قبائل الريف فى شمال المغرب والطوارق نبلاء الصحراء الأفريقية، وهل تصنيفه لهما ضمن الشعوب البدائية يرجع إلى نزعة استعمارية كامنة فى ذاته وبخاصة أنهما الجماعتان المسلمتان اللتان قاومتا عمليات الاستعمار والتبشير المستمرة فى المغرب العربى، وبخاصة بعد سقوط الأندلس وعودة أسبانيا مسيحية.. أم لأنه هو نفسه ينتمى إلى فورنو Robuas Furneaux أحد الغزاة الذين غزوا جزر هاواى. فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع كابتن كوك وسير بانكس.. أن ما يقدمه هو نفسه من مادة وحديث عن أهل الريف والطوارق يؤكد أن هذه القبائل ليست فى حالة بدائية من الحياة كغيرها من بعض شعوب أفريقيا أو سكان الجزر والآجام الاسترالية.

والمجموعات البشرية التي تناولها فى كتابه هى :

١- سكان استراليا الأصليون.

٢- الطوارق الملثمون.

٣- الاسكيمو السعداء- سكان القطب الشمالى

٤- الزولو النظاميون سكان جنوب افريقيا
٥- الجيفارو مقلصو الرؤوس فى جبال الأنديز الشرقية.
٦- أقزام أفريقيا الاستوائية.
٧- اللاب المتجولون فى اسكندينيفيا.
٨- شعب العصر الحجرى فى نيوغينيا
٩- ملاحو المحيط الهادى متأملو النجوم.
١٠- قبائل الريف المتواضعون سكان شمال المغرب.

وحينما يتحدث الكاتب عن عادات هذه الشعوب فهو يتحدث عنها حينا بنظرة موضوعية، وحينا آخر بنظرة أوروبية لاتخلو من استعلاء حضارى، رغم ما يبديه من عطف أحياناً على هذه الشعوب التى أقلق سعادتها واستقرارها وفود الإنسان الأوروبى.

فعلى الرغم من أن هذه الشعوب تعيش فى حالة متدنية من الحياة، فإنهم سعداء بذلك وكما أن مفاهيمهم الروحية غامضة بالنسبة لنا فإن المعتقدات المسيحية ومفاهيم الإنسان الأوروبى عن التقدم المادى فى حياتنا المعاصرة هو أمر غامض أيضا بالنسبة لهم.

وقليل من الباحثين المدربين هم الذين استطاعوا أن يكشفوا

الحجاب عما لا نعرفه من حياة هؤلاء الناس.

ولقد استمرت محاولات اكتشاف مناطق مجهولة من العالم منذ بداية القرن السابع عشر إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر.

كما حاول عدد من المكتشفين والمغامرين والرحالين الأوروبيين الوصول إلى شواطىء استراليا وجزر المحيط الهادى.. ومنهم من رفض النزول إلى هذه البلاد بعد ما واجهوه من مقاومة أهلها المتوحشين - كما يصفهم بذلك الأوروبيون - وبخاصة فى استراليا.. ولكن بعد أن قتلوا عددا غير قليل من سكان استراليا الأصليين أمكنهم النزول إلى شواطىء هذه القارة وغزوها هي وعددا آخر من الجزر المجاورة.

وعلى سبيل المثال فى عام ١٧٧٠ - وصل سير جون بانكس مع كابتن كوك إلى خليج بونتى ولاحظ أن سكان هذه المنطقة يعيشون عيشة بدائية وفى عزلة عن الحياة الإنسانية العالمية ترجع إلى حوالى عشرة آلاف سنة، عزلة تحوط حياتهم وترتبط فقط بواقع البيئة التى يعيشون فيها.

واعتبرهم بانكس جماعة من القردة العليا Apes لأنهم يعيشون فى حالة أولية من الحياة الإنسانية معتمدين فى

طعامهم على صيد الأسماك والتقاط ثمار الأشجار ولا يعرفون الزراعة، ويستخدمون فى صيد الحيوانات عصا مقوسة يرمونها تجاه صيدهم. كما أنهم لا يعرفون الحياء خلال علاقاتهم الجنسية مع النساء بل يمارسون ذلك كالحيوانات السائمة.

وظلت هذه الأفكار تسيطر على فكر الأوروبيين.. حتى بعد أن سيطر المستعمرون البيض على هذه المناطق من العالم وبعد أن قتل العديد من سكان استراليا الأصليين وأفريقيا برصاص المستعمر الأبيض، وبعد أن مات الكثير منهم أيضا نتيجة تسميم مياه الشرب كما مات الآلاف أيضا بسبب الأمراض التى انتقلت إليهم من المستعمرين البيض الذين احتلوا أراضيهم. ظلت هذه الأفكار شائعة إلى أن أمكن عمل دراسات أنثروبولوجية عن هذه المجموعات من البشر..

كما حل هذا القضاء المبرم على السكان الأصليين فى استراليا قبل أن تتم دراسات علمية عن حياة هذه الجماعات الإنسانية، وكذلك عن أنواع الحيوانات النادرة والأسماك والنباتات التي نمت فى استراليا، وعاشت فى عزلتها بعيدة عن العالم الآخر، محتفظة بخصائص قديمة، قد يرجع تاريخها إلى العصر الحجرى، مثلما عاش الإنسان فى أوروبا منذ

« ٥٠،٠٠٠ » خمسين ألف عام.

فحياة هذه الجماعات البشرية فى استراليا بخاصة، تشابه صور الحياة البدائية التي سجلها الأوروبى القديم على جدران الكهوف التي عثر عليها فى جنوب أوروبا ويرجع تاريخها إلى « ٥٠،٠٠٠ سنة» ويواصل فورنو حديثه عن سكان استراليا الأصليين ويتساءل عن أصول هذه الجماعات الإنسانية من أين أتت تلك الحياة القديمة البدائية..؟

والاحتمال الأكبر أنهم هاجروا من جنوب شرق آسيا إلى استراليا. فمن المحتمل أن المياه كانت ضحلة وأقل عمقا فى تلك الفترة الماضية من عصور التاريخ مما هى عليه الآن. وظلت هذه الجماعات البشرية فى عزلتها ويتميز السكان الأصليون بأنهم طوال، وكذلك قصار القامة. ولون بشرتهم بنى قاتم، أكثر من أن يكون أسوداً. وشعورهم مجعدة متموجة، ووجوهم مستديرة، وأجسامهم يغطيها الشعر، وجبهاتهم تنحدر إلى أسفل من أعلى، ورؤوسهم ضيقة، ومقلات عيونهم دا خل محاجرها، وحواجبهم بارزة. كما أن جماجمهم سميكة، وحجم المخ عادى فى معدل حجم مخ الإنسان بعامة، أما أنوفهم فمتسعة الفتحات، كما يتمتعون بفك للأسنان قوى، وأيديهم

طويلة مستديرة مرنة، وأجسامهم مستقيمة. وهذه الصفات الأنثروبولوجية تجعلهم يتميزون عن غيرهم من الأجناس البشرية، فهم مختلفون عن القوقازيين والمنغوليين والزنوج، إنهم جنس متميز خاص بصفاته.

هذه النظرية يدور حولها جدل علمي كبير بين أصحاب نظرية تعدد الأصول البشرية ونظرية الأنواع البشرية التي تنحدر من أصل واحد. ويذهب فورنو إلى أن هذه الجماعة البشرية ظلت فى عزلتها مع أنواع نادرة أيضا من الحيوانات مثل الكنغر أو الأسماك النادرة، فى حين تطورت أجناس أخرى وانتقلت عبر حقب الزمان، من العصر الحجرى إلى مجالات متقدمة فى المعرفة والعلوم، سواء أكان ذلك فى مجال العمران وبناء ناطحات السحاب، أم فى اختراع الأسلحة الذرية. فى حين ظل سكان استراليا الأصليون قانعين بحياتهم البسيطة وأدواتهم الحجرية ومساكنهم البدائية .

ولكن هل تخلفهم هذا يرجع إلى ظروف البيئة التى يعيشونها أم نتيجة انعدام المنافسة والصراع مع ثقافات أخرى أم أن ذلك راجع إلى نقص فى قدراتهم العقلية ؟

كثير من الأنثروبولوجيين يرى أن هؤلاء الأصليين لا يقلون

ذكاء عن غيرهم من الشعوب ، ويرجع سبب تخلفهم الحضارى إلى أنهم يعيشون فى توافق مع الطبيعة ، وهذا التوافق هو الذى أعطاهم شعوراً بالقناعة والهدوء دون حاجة إلى صراع يدفع إلى التغير .

وهذه الجماعات البشرية الحفرية ، كما توصف أحيانا ، يمكن أن تكشف لنا عن واقع ماضى الإنسان وطبيعة الحياة التى عاشها أسلافنا منذ عشرة آلاف سنة على الأقل بل إلى « ٥٠,٠٠٠ » عام ولكن حياة هؤلاء السكان الأصليين قد بدأت تتغير ، كما أن طرق حياتهم التقليدية أخذت تندثر تحت وطأة الغزو الحضارى الذى غير الكثير من مظاهر الطبيعة فى تلك المناطق . كما أن وفود الإنسان الأوروبى إلى هذه المناطق قد أحدث تغييرات كثيرة فى شكل الحياة بل حتى فى البناء العضوى لهؤلاء المواطنين الأصلاء . . ويقدم لنا فورنو نماذج وأمثلة مما حدث ويشرح جوانب التغييرات الأنثروبولوجية العضوية التى حدثت فى بنية الإنسان الأصيل . فقد طرأ تغير على لون وملامح السكان وتكوينهم الجسمانى خلال هذه الفترة القصيرة ، سواء من خلال تغير أشكال الحياة أو العوامل الوراثية الجديدة ، علاوة على العوامل الأخرى من قتل وأمراض

فتكت بهؤلاء السكان وأثرت في عدد هؤلاء الناس البسطاء .

كما يتناول الكاتب بعد ذلك أنماط العلاقات الاجتماعية الخاصة بهذه الجماعات البشرية القديمة في استراليا وبخاصة عادات الزواج . فالمجتمع يسوده النظام الأمومي . والأطفال يرتبطون بالأمهات لا بالآباء ، وحينما يبلغ الأطفال سن الحلم ينتقلون إلى مجتمع الرجال وهناك يتعلم الصبية حياة الرجال .

وإذا قامت علاقة حب بين فتى وفتاة فإن الفتاة تعطي خصلة من شعرها للفتى ، وإذا أراد أحد الشبان زواج إحدى الفتيات ، فإنه يذهب إلى أمها ويطلب منها أن تعطيه ابنتها . فإذا وافقت الأم على إعطاء ابنتها إلى هذا الشاب فإنها تضع ذراع البنت في يده . وفي الليلة التالية تذهب الفتاة مع الفتى إلى كوخه ، ولكنه لا يدخل بها أو يلمسها إلا بعد أن يعتادا الحياة معاً .

وخلال الحياة الزوجية يحرص الزوج على المحافظة على زوجته وملاحظة من قد يحاول الفوز بها عن طريق السحر ، أو أخذها منه . وبخاصة أن عادة الزواج بالأسر موجودة أيضاً ، أي في مقدور الأقوى أن يحصل على الزوجة التي يريدها بالقوة وبالصراع مع منافسه وأسر زوجته لتكون زوجة له . وهذه العادة شائعة أيضاً ، مثلما هي شائعة بي غير ذلك من مجتمعات ، بل

ومـازالت تمارس للآن فى المجـتـمـعـات المتـقـدمـة ولكـن بوسـائل مختلفة تتوافق مع التطور الذى حققه الإنسان فى حياته المدنية المعاصرة. فالصراع الآن ليس صراعا يعتمد على قوة الصراع اليدوى بل على وسائل أخرى .

كما يذكر الكاتب أيضاً أن عادة تبادل الزوجات أو إعارة الزوجة موجودة بين السكان الأ صليين فى استراليا . فإعارة الزوجة لأحد الضيوف هو شكل من أشكال الضيافة والاحتفاء بالزائر . وهى عادات تمارس طبقا لشعائر وطقوس .

كـمـا أن النظام الاقـتـصـادى فى العـمـل ينقـسم بين المرأة والرجل، فالرجل يقوم بالصيد والمرأة تقوم بجمع الثمار وتعيش هذه الجماعات البشرية حياة بسيطة على الفطرة، لا يرتدون ملابس ولكن يخضبون أجسامهم ببعض الدهون والألوان مما لها رموز سحرية تمنحهم القوة والصحة .

فالسحر عندهم يرتبط أما بالعلاج والحفاظ على الصحة أو بتدمير أعدائهم. وكذلك فى إخضاع النساء للرجال .

كما ناقش المؤلف فى إيجاز الصفحات العشرين التى أفردها فى كتابه للحديث عن سكان استراليا الأصليين مفهومهم عن الكائن الأعلى، وأشار إلى أن بعض القبائل تعتقد فى إله

السماء، ذلك الذي اسمه مقدس بل لا يمكن حتى الهمس به. ولكن معظم القبائل تؤمن بالطوطم. فكل قبيلة وكل جماعة وكل أسرة وكل رجل وكل امرأة وكل طفل يرتبط بطوطم معين، حيوانا كان أم حشرة أم من الزواحف أو النبات. إنها أرواح الأسلاف التي هي حيوانات ونباتات ويحظر الزواج من نفس الطوطم، كما يعتقد بأن كل شيء له روح تسيطر عليه. فعالمهم، عالم تسيطر عليه الأرواح Spirit - Ridden والسحرة هم الذين لهم القدرة على تخليص الأشياء والأشخاص من الأرواح التي تسيطر عليها. فكل شيء في الطبيعة من كائنات حية أو جامدة له روح تملكه، ولذلك يتصف هؤلاء السكان الأصليون لاستراليا بأنهم مجتمع الذين يسيطر على عالمهم عالم الأرواح فكل شيء تركبه روح The Spirit - Ridden Aborigines of Australia.

والملكية مشاعة في حياتهم، الأسلحة والأدوات يمكن لكل شخص استخدامها، ولذلك تصنع بكمية تزيد على احتياجات كل فرد. أما أهم الأسلحة فهي الحربة المدببة وهي تصنع من خشب البامبو، وتصنع الأسلحة الأخرى من الحجر المصقول وهي تماثل تلك الأسلحة التي كان يستخدمها الإنسان القديم في

عصور ما قبل التاريخ .

ولكن حياة هؤلاء السكان الأصليين أخذت تتلاشى إزاء زحف المحتلين البيض. مثلهم فى ذلك مثل حياة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين .

ففى استراليا الآن ثقافتان مختلفتان ـ الأولى ثقافة المحتلين البيض، بتطوراتها وإمكانياتها الكبيرة وثراء أصحابها. والثانية ثقافة السكان الأصليين ببساطتهم البدائية وفطرتهم الأولى.. ولكن إلى متى سيحافظ هؤلاء السكان الأصليون على عاداتهم وتقاليدهم، مع الاستفادة فى نفس الوقت من المعطيات الحضارية الحديثة التى جلبها الإنسان الأبيض معه؟! وإلى أى مدى سيساعد هؤلاء المحتلون هذا الشعب البدائى صاحب الأرض..؟ أسئلة كثيرة تثار حول التغيرات التى حدثت والتى يحتمل أن تحدث وعن مستقبل هذا الشعب الاسترالى ومصيره فى المستقبل .. ولكن أى نوع من المستقبل سيكون..؟

لا شك، سوف تظهر ثقافة جديدة، وسوف ينشأ جنس جديد نتيجة لعمليات التداخل الثقافى بين الوافد والأصيل. والزواج بين المحتل والمواطن القديم، وسوف يتم حتما ظهور أشياء وجنس جديد يقدم لنا شيئاً جديداً يجمع بين كل ما هو

جيد وحسن، وبين ما هو سيىء ورديء من هاتين الثقافتين، وتلك الحياتين، الأصلية والوافدة .

وقد بدأت فعلاً بعض التغيرات الاجتماعية تحدث في حياة السكان الأصليين لاستراليا . . هؤلاء الذين عاشوا آلاف السنين في نسق واحد من الحياة . . ثم فجأة، خلال القرنين الماضيين، واجهوا تغييرات معقدة سريعة وقوية لم يقدروا على مجابهتها ولن يستطيعوا مقاومتها . وقد انتقل فعلا بعض منهم إلى الحياة المدنية يعملون في مهن بسيطة وأعمال متدنية اجتماعياً في المدن والمصانع والمناجم . والبعض الآخر آثر أن يعيش في الآجام، وعلى شواطئ البحر بعيداً عن حياة المدنية الأوروبية، وهؤلاء هم الذين يسمون حاليا «سكان الآجام» هؤلاء الذين يؤمنون بأن البيض قد سرقوا أرضهم . ولكن أنى لهؤلاء القدرة على عمل شيء؟ . بل سوف يندمجون آجلا هؤلاء «سكان الآجام» - شيئاً فشيئاً في حياة المدنية الزاحفة، وسيظهر بعد ذلك جنس جديد يحمل موروثات الثقافتين والجنسين بخيرهما وشرهما . وقد بدأت فعلاً بعض بوادر ذلك الجنس تظهر . وإلى أن يحدث التغيير الكبير ستظل البحوث الأنثربولوجية تحاول الكشف عن كوامن الثقافة الإنسانية التي عاشها هؤلاء السكان

الأصليون عشرات الآلاف من السنين، وقد تقدم لنا الدراسات في المستقبل - رؤية جديدة تكشف عن مكونات وواقع حياة الإنسان فى العصور القديمة .

وإلى أن يحدث ذلك التغيير أو تلك الاكتشافات لا نستطيع عمل شيء غير تأمل هؤلاء الناس ومحاولة فهم حياتهم من خلال مفهوماتهم عن الحياة . حياتهم هم، وحياة كل شيء يحوط هذه الحياة .

بعد ذلك ينتقل بنا الكاتب إلى مجتمع الطوارق الملثمين سادة الصحراء الذين عاشوا فيها آلاف السنين The Veiled Tuaregs of the Sahara .

هؤلاء الذين لا ينظرون يمنة أو يسرة لا يخافون أي إنسان . سادة الخليقة وامراء الأرض . والذين يبلغ طول الواحد منهم حوالى ستة أقدام .

هؤلاء المحاربون الشجعان، فرسان الصحراء الذين أثاروا الرعب فى قلوب جنود فرنسا كما كانوا أيضاً، موضع إعجاب وتقدير هؤلاء الجنود فى نفس الوقت . وقد عرف الطوارق اللثام الذى يغطى وجوههم منذ آلاف السنين .

أما لماذا يفعلون ذلك . . ؟ فإنه سؤال بلا إجابة محددة للآن ،

بل هم أنفسهم لا يعرفون سبب ذلك.. هل لحماية وجوههم وأنوفهم من حبات الحصى والرمال التى تحملها الرياح..؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا النساء والشبان الصغار لا يفعلون ذلك؟ السبب إذن ليس حماية الوجه من الرمال. كما أن سكان الصحراوات الأخرى لا يغطون وجوههم باللثام طول الوقت.. ولا يوجد غير الطوارق بين سكان الصحراء الذين يغطون وجوههم باللثام.

وكما أن هذه العادة - اللثام - غير معروف للآن أصولها فالطوارق أنفسهم غير محدد تاريخهم أيضاً. هل هم أصلا من زنوج أفريقيا..؟ طبعاً لا.. فهم لا يحملون فى ملامحهم وبنية أجسامهم عناصر من السلالة الزنجية. هل هم أصلا من أسلاف رومانية من بين الذين صاحبوا هانيبال فى حملته عبر جبال الألب فى أثناء غزو إيطاليا؟.. أيضا الإجابة على ذلك ستكون بالنفى.. هل هم من البربر سكان أفريقيا؟ سنجد أيضا الإجابة بالنفى، لأن تكوينهم الجسمانى يختلف عن البربر. كما أن لغتهم تختلف عن لغة البربر التى تعتمد على الحروف العربية ويعقب المؤلف على ذلك بقوله إننا لا نجد إجابة دقيقة للآن تحدد أصولهم التاريخية العريقة ولكن المعروف عنهم أنهم نبلاء

السلوك بل يعتبرون أنفسهم أكثر الشعوب عراقة ونبلا. وينظرون إلى الأوروبيين والبربر على أنهم لصوص وقطاع طرق. مثلهم مثل أكلة لحوم البشر في وسط أفريقيا.

إنهم يحتقرون الأوروبيين بآلاتهم البخارية وطائراتهم بل وكل مستحدثات الحياة الأوروبية الصناعية حتى الأسلحة النارية التي يستخدمها الأوروبيون - والتي كانت السبب في هزيمتهم - ينظر إليها الطوارق على أساس أنها أسلحة الجبناء، فالطوارق يعتمدون على الصراع النبيل والحرب الشريفة مع الأعداء وجها لوجه.

والطوارق هم فرسان صحراء أفريقيا، يعرفون دوربها ويتنقلون عبر مسالكها في قوافل من الجمال وعلى ظهور الخيل.

والطوراق مسلمون، وعادات وتقاليد الزواج عندهم تخضع لقواعد الشريعة الإسلامية. وهم يفتخرون بأمهاتهم - وهذه عادة كانت شائعة بين سلالة العرب في الجاهلية كما يعتقدون أنهم من سلالة نبيلة أصلها الملكة تيان هينان Tien Henan. وقد أكدت البحوث الأركيولوجية والحفريات التي قام بها الكونت بيرون دي بروروك Count Byron de Prorok باحث الآثار



الغناء والعزف على الآلات الموسيقية بعد انتهاء يوم عمل

الفرنسى فى عام ١٩٢٦ م حقيقة اعتقادهم هذا. فقد اكتشف مقبرة تضم رفات امرأة وحول معصمها الأيمن سوار من ذهب وحول المعصم الأيسر تميمة من فضة، كما وجد تمثالا يشبه التمثال الذى وجد فى المقابر القديمة التى وجدت فى جنوب فرنسا ويرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ. هذا الاعتقاد فى أصولهم التى ترجع إلى الملكة تيان هينان يجعل للمرأة مكانة خاصة فى مجتمع الطوارق.

فالمرأة ليست للفراش ولكنها رفيقة حياة وصديقة. إنها ملء العيون والقلب. والرجل من الطوارق لا يتزوج أكثر من واحدة. وإذا طلقت المرأة فإنها لا تتزوج قبل أن تعتد عدتها تبعاً للشريعة الإسلامية.

والمرأة تحتل مكانة متساوية للرجل. ولها حق اختيار زوجها، فالحب مسموح به قبل الزواج. كما تشارك فى أشعار وأغانى الحب الرومانسية. وفى غياب زوجها تقوم هى بمسؤلياته.

وقد وصف أحد الرحالين الإنجليز نساء الطوارق بأنهم يتميزن برجاحة العقل، ووصفهم بأنهن سيدات العالم.

كما أورد فورنو نصا نقله عن ابن بطوطة ينتقد فيه نساء الطوارق. فعلى الرغم من أنهن مسلمات مواظبات على

الصلوات إلا أنهم لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن. أما النص الذى أورده فورنو فى كتابه ص ٣٤ ـ نقلا عن كتاب ابن بطوطة فهو «دخلت يوما على أبى محمد بن يندكان المسوفى الذى قدمنا فى صحبته، فوجدته قاعدا على بساط، وفى وسط داره سرير مظلل، عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان، فقلت له : «من هذه المرأة..؟. فقال : «هى زوجتى». فقلت : ومن الرجل الذى معها..؟ فقال : «هو صاحبها؟ فقلت له : أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟. فقال لى : مصاحبة النساء للرجال عندنا خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم». فعجبت من رعونته وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها، واستدعانى مرات فلم أجبه (١٦) .

ويواصل فورنو بعد ذلك حديثه عن الطوارق ويقدم نماذج من انطباعات الرحالين الأوربيين الذين كتبوا عن الطوارق وكلها عبارات تقدير لوضع المرأة فى مجتمع الطوارق. فنساء الطوارق هن بالفعل المحافظات على تقاليد وعادات الطوارق يعلمن أبناءهن مأثورات وتراث الأجداد فيشب الأبناء (بنين وبنات) ملمين بكل عادات وتقاليد الآباء من صفات النبل والشجاعة.

حتى أن الفرنسيين الذى استعمروا الصحراء وحكموها لمدة سبعين عاما تعلموا أن يصفوا الطوارق بأنهم فرسان الصحراء البيض . فالفارس من الطوارق قد يموت من العطش والجوع والحر ، ولكنه لا يتنازل عن كبريائه أو يقترف أى جريمة مخلة بشرفه ، فهو لا يسرق ولا يعتدى على الآخرين .

والواقع أن القارئ لهذا الفصل من الكتاب الطوارق يتعجب كثيراً من إدراج الكاتب لقبائل الطوارق ضمن مجموعة الشعوب البدائية . هل لأنهم ظلوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم خلال عشرات القرون سعداء بحياتهم البسيطة فى نبل وكبرياء يحسدهم عليها سكان الحضر والمدن الكبيرة ؟ أم لأن سلطانهم الذى كانوا يتميزون به كفرسان للصحراء قد ضاع الآن ، وأصبحوا تحت نظم الحكم الحديثة يتساوون مع غيرهم ولا يملكون سوى ذكريات عراقة ماضيهم ؟ . وأظن أن الكاتب نظر إليهم من خلال هذا المنظور فى تصنيف الثقافات التقليدية باعتبار أنهم شعب متميز يمر بدور الاحتضار الثقافى ازاء ضغط التطور الصناعى الذى تشهده الصحراء الأفريقية من اكتشافات غنية للبترول والغاز الطبيعى والمعادن الكامنة فى بطن الصحراء .

ومع تفجر البترول وبزوغ الغاز الطبيعي وحفر الآبار والمناجم تغرق ثقافة الطوارق، وتندثر معالم الطريق إلى حياتهم الأصلية، ويتحول الفرسان النبلاء إلى عمال وموظفين في شركات النفط ومناجم الصحراء. وتموت النيران القديمة التي أنارت الصحراء ليحل محلها دخان شعلات الغاز الخانقة للحياة. والواقع أن كل كلمة كتبها الكاتب عن الطوارق تحمل إحساساً عميقاً بتقدير دورهم الإنساني وإدراكا واعياً للدلالات الإنسانية التي تحتويها عاداتهم وتقاليدهم .

هذه النظرة إلى ثقافات الشعوب التي نلمسها في معظم حديث فورنو تشير إلى إدراك واع لمضمون الثقافة الإنسانية من خلال مجموعة القيم التي تشكل هذه الثقافات، وهو المعيارالحقيقي لتقييم الحضارة الإنسانية وليس فقط من خلال تقييم أشكال التقدم العمراني والصناعي التي تكون أنماط الحياة المعاصرة على الرغم مما يشوب حديثه أحيانا من نبرة الاستعلاء الحضاري ونغمة الهمس التبشيري في أحيان أخرى .

فثقافة الشعوب هي النسق التي تنتظم فيه مجموعة القيم التي تنظم الأفعال السلوكية. كما أنها في نفس الوقت تجريد لمضمون الممارسات السلوكية في الحياة اليومية .

ففى الحياة البدائية أو حياة البادية ببساطتها، لا يوجد انفصام بين ما هو مجرد وما هو تطبيقى، ولا بين ما هو غائى فى ذاته وبين ما هو عملى أو نفعى؟!... فالفكر والعمل يلتقيان فى وحدة واحدة.

فالافكار المجردة، والتنظير الفلسفى هو تصور لما هو ممكن بالفعل. وهو إدراك فى نفس الوقت لما يجب، من خلال ما هو كائن. ويظهر ذلك بشكل واضح فى الفنون التشكيلية بخاصة، والفنون التعبيرية بعامة... تلك الفنون التى أبدعها الفنان البدائى فى تلقائية وصدق وقوة تعبير، لكى تستخدم فى الحياة اليومية، سواء من خلال وظيفتها السحرية أو الاعتقادية لتقمص أرواح الأسلاف.

فهذه الفنون تكمن قيمتها الجمالية - وعلى سبيل المثال الأقنعة الأفريقية، فى قوة وصدق تعبيرها عن الحالة الوجدانية للإنسان المبدع والممارس فى نفس الوقت. لذلك كان تأثير الفنون البدائية فى الفنون الحديثة التشكيلية وفنون النحت بخاصة تأثيراً كبيراً (١٧) فقد أعطت هذه الفنون للفنانين المحدثين بأصالتها التلقائية، مجالات جديدة من التعبير عن واقع الخبرة الجمالية الإنسانية، دون عوائق من التفسير المنطقى

المجرد، أو من حواجز الثقافة المصنوعة. فقد تميز الفن البدائى بقدرته على التعبير المباشر، عن إدراكه المباشر، لحالات التغير الحادثة فى الحياة .

وعلى الرغم من أهمية هذه الفنون فى التعبير عن ثقافات الشعوب فإن المؤلف لم يقدم لنا نماذج منها، وبعد أن قدم لنا فى الفصل الثانى، مجتمع الطوارق انتقل فى الفصل الثالث إلى الحديث عن «الاسكيمو السعداء سكان القطب الشمالى The Happy Eskimos of the Arctic هؤلاء الذين يواجهون الآن - أيضا - ضغوط المتلصصين الذين يسعون إلى سرقة جلود الدببة، وغزوات شركات البترول التى تحفر تحت طبقات الجليد بحثا عن مصادر جديدة للطاقة. وكأنها بآلاتها الحديثة تنخر عظام الاسكيمو السعداء، فتتحول ابتساماتهم الصامتة إلى آهات موجعة.. فبعد أن بعد الإسكيمو عن صرخات الهنود الحمر الذين كانوا يغزونهم ويسلبون ممتلكاتهم ويثيرون الفزع فى قلوب نسائهم، أصبحوا الآن رغم عزلتهم التى مضى عليها أكثر من ٥٠٠٠ آلاف عام يواجهون خطر غزو لا يستطيعون صده ولا يعرفون سبيلا إلى حماية أنفسهم منه .

إنه غزو جديد يفوق تصوراتهم وقدراتهم، لأنه غزو

منجزات المجتمع الصناعى الحديث .

ولكن من أين أتى الاسكيمو إلى هذه الأرض الجليدية . . التى يعتقدون أنها أجمل أرض ، وأنهم أسعد أهل الأرض قاطبة ؟

يفترض بعض الانثربولوجيين أن الاسكيمو فرع من الهنود الحمر الذين نزحوا من آسيا منذ « ٢٠,٠٠٠ » عام تقريبا . وبعض آخر يظن أنهم عنصر مستقل مثلهم - فى ذلك - مثل الهنود والمنغوليين . فالاسكيمو لا يبدو عليهم أى تشابه أو علاقة مع الشعوب الآسيوية المعروفة كما أن لغتهم تختلف تماماً عن الخمس والسبعين لغة المعروفة بين الهنود .

ولكى يحل هذا الاشكال اقترح بعض الأنثروبولوجيين اعتبار الاسكيمو من أصل منغولى . فهذه النظرية تتوافق مع بعض الموروثات الثقافية الباقية فى تراث الاسكيمو حول موطنهم الأصلى . . تلك الأرض التى كانت تمطر عليها النيران ويشتعل على أرضها الجليد . وهذا التراث القديم محتمل أن يكون بقايا ذكريات قديمة عن ثورات بركانية .

على أية حال ، مهما كانت أصولهم العريقة ، فإن الإسكيمو يتميزون بالاكتفاء الذاتى فى حياتهم وتأقلمهم مع ظروف البيئة الطبيعية التى يعيشون فيها كما أن البحر هو مصدر

معيشتهم. أما هؤلاء الذين يعيشون داخل القطب الشمالى فهم أكثر فقرا ممن عاشوا على ساحل البحر فقد اقتصرت حياتهم على الصيد ومعاناة غزوات الهنود الحمر لهم . ثم هجمات «الخطافين» البيض بعد ذلك .

وتعتبر الزحافات التى تجرها الكلاب على الجليد من أهم اختراعات الاسكيمو فهى تساعدهم على التنقل وحمل امتعتهم .

وعلى الرغم من التنوع فى ثقافات جماعات الاسكيمو إلا أنهم جميعاً يتحدثون لغة واحدة من الجرين لاند إلى آلاسكا كما أنهم جميعا قصار القامة تتراوح أطوالهم بين ٦٢,٢ - ٦٦,١ بوصة، أى حوالى ١٦٠سم .

وتنتمى مجموعة دمائهم غالبا إلى المجموعة «ب» (B) وهى المجموعة التى لا تتوافر بكثرة بين الهنود الحمر، مما يرجح أنهم جنس مختلف عن الهنود الحمر. فى حين أن ملامحهم وخاصة تشريح العيون يماثل ملامح المنغوليين .

ويتميز الاسكيمو أيضا بقوة أجسامهم. والأنف الدقيق الضيق الفتحات. والذى يرد السبب فى تكوينها هكذا، إلى البرد الشديد فى هذه المنطقة. ويضيف لنا فورنو بعد ذلك

صفاتهم الأنثروبولجية والتشريحية من حيث مقاييس الدماغ والوجه، وهي تفاصيل علمية معروفة عنهم ومما يتوافق مع ظروف البيئة القاسية التى يعيشون فيها. وأصعب ما يواجهه الاسكيموا فى هذه المنطقة المتجمدة هو البرد والبحث عن الطعام .

كما أن الظلام يحوطهم تماما لمدة شهرين كل عام. وهذه الفترة من الظلام الشديد تحتاج منهم جهداً كبيراً فى الاستعداد لها بتخزين الطعام الذى سيحتاجون إليه خلال هذه الفترة من الظلام .

أما حياتهم الاجتماعية فهى بسيطة، فلا يوجد رئيس أو زعيم. ويعيشون فى جماعات تتكون من عدة عائلات دون أى تنظيم قبلى أو تنظيم رئاسى. فكل اسرة هى كيان اجتماعى مستقل، والأرض وثمارها ملك للجميع. لا امتياز لأحد. والواجبات أمر الزامى للجميع. كما أن الطعام والمأوى هو أمر يشارك فيه الجميع .

والإسكيمو قوم يحبون الحياة ولا يخشون الموت، كما أنهم يؤمنون بوجود حياة أخرى. حياة أقل صعوبة من حياتهم التى يعيشونها على الأرض. وكل انسان أو حيوان له روحه التى

ترتبط باسمه . كما أنهم لا يعتقدون فى وجود آلهة غاضبة تحتاج إلى قرابين تقدم لها حتى لا تصب غضبها عليهم . ولا يشعرون بأى ذنب تجاه الآلهة . فهم يقبلون على الحياة ويتقبلونها كما هى ، دون البحث عن تفسير لها أو عن أسباب الوجود . وينظرون إلى العالم على أساس أنه عالم كبير ، ويرون فى ذلك قصة عائلتين ناقشتا هذا الموضوع ـ حجم العالم ـ واتفقت العائلتان على محاولة معرفة إلى أى مدى يكون حجم هذا العالم . فسافرت كل عائلة فى اتجاه مغاير للأخرى ، بواسطة الزحافات . وساروا فى اتجاه مختلف ليبحثوا عن «المكان الذى يلتقى فيه العالم مع نفسه» سافروا عدة سنوات ، وأقاموا فى عدة أماكن يتصيدون طعامهم . . ويواصلون رحلتهم . . كل فى اتجاه عكس اتجاه الآخر . ومضت سنوات وانجبوا أطفالا . وكبر الآباء وماتوا . وظل الأحفاد وأحفاد الأحفاد عبر أجيال عديدة يواصلون رحلتهم التى بدأها الأجداد وأجداد الأجداد . وأخيراً التقت العائلتان وعرف بعضهما البعض واكتملت الدائرة ، إذ التقوا من الاتجاهين المختلفين . «إن العالم أكبر مما ظنوا» .

بجانب تصورهم هذا عن حجم العالم فإنهم يعتقدون أيضاً أن كل الكائنات والأرواح ترتبط باسم الكائنات . ولكل إنسان

روح لا تفارقه حتى بعد موته، إلى أن يعطى طفل نفس اسم من مات. حتى الحيوانات والأسماء تظل الروح كائنة حتى بعد مفارقة الجسد، إلى أن تحل فى أجسام أخرى تولد من جديد لتخلق مزيداً من الناس والحيوانات والأسماك.

والأرواح هى أرواح أليفة تساعد أبناء الاسكيموا على تحمل صعوبة الحياة ..

ثم يتناول المؤلف بعد ذلك حياتهم فى صيد الحيوانات المائية التى تعيش فى الماء تحت طبقات الجليد.. وطرق صناعة القوارب أو الزحافات.

ومجتمع الإسكيمو كما ذكرنا يقوم على أساس الأسرة، والأسرة تتكون بمجرد أن يشب الفتى ويكون فى مقدروه الحصول على طعام يكفى شخصين هو وزوجته. وقد يكون للرجل زوجتان إذا كان صائداً ماهراً ويستطيع أن يوفر الطعام لهما. ولكن المرأة لا تتزوج بأكثر من شخص. كما أن تبادل الزوجات أو اعارتهن هى عادة شائعة أيضاً. وتقديم الزوجة للضيف هو شكل من أشكال الضيافة. كما أنه مسموح للفتيات بإقامة علاقات مع الشبان قبل الزواج.. كما يحتفى الإسكيمو بالابناء، فالأطفال لهم أهميتهم فى حياة الأسرة،

والأبناء هم الذين سيرون الأباء حينما تتقدم بهم السن. وإذا لم ينجب أحدهم يسعى إلى أن يتبنى أحد الأطفال أو شرائه.. والطفل ينشأ على أساس أن أعمامه وأخواله وعماته وخالاته هم آباؤه وأمهاته أيضا. كما أن الرجل لا يتحدث مع حماته إلا عند الضرورة، وكذلك المرأة لا تتحدث إلى حماتها إلا إذا وجهت الحماة إليها الحديث.

والعلاقة الأسرية وطيدة بين الجميع.. كما أن الملكية شائعة بين الجميع فمن لديه زحافة ولا يستخدمها، يستخدمها الآخرون إذا احتاجوا إليها. كما أنه لا يوجد نظام طبقي. فالكل متساوون في الواجبات والحقوق. والسرقة غير معروفة.. وحوادث القتل أيضا غير معروفة إلا في حالة الصراع من أجل الحصول على امرأة معينة.

ومجتمع الإسكيمو بصفة عامة يوصف بأنه مجتمع «الهدوء المتوازن»، وهذا شيء طبيعي - كما يقول المؤلف - نظرا لفقدان التوتر الاقتصادي في هذا المجتمع تبعا لظروف البيئة نفسها.

ومن الملاحظ أن العلاقة بين الآباء والابناء علاقة مودة وحنان فالأب يصنع لأبنائه اللعب ويعلمهم طرق الصيد وبناء المنازل. كما أنه في نفس الوقت لا يدللهم كثيرا. وتتساوى في رعايتهم

للأطفال عنايتهم واحترامهم للموتى وفى المناطق المتجمدة يدفن أو يترك جسد الميت تغطيه الثلوج المتساقطة. وفى السواحل يترك جسد الميت على الشاطىء يحمله المد بعيدا داخل البحر. ويترك بجوار الجسد الادوات والاسلحة التى كان يستخدمها الانسان قبل موته، حتى تسهل على الروح حياتها من جديد. وبعد إتمام عمليات الدفن يقوم الاحياء بالاستحمام لتطهير أنفسهم.

ويختتم المؤلف حديثه عن الإسكيمو بأنهم يفوقون غيرهم من الشعوب البدائية من حيث طبيعة الحياة التى يعيشونها.. ولقد حازوا إعجاب واهتمام مختلف شعوب العالم. كما أن البعض منهم هاجر من موطنه الأصلى وحياتهم البدائية ولكن للأسف لم تكن حياتهم الجديدة حياة سعيدة كما كانوا يتوقعون.. ويشير المؤلف مرة أخرى إلى ما يواجهه سكان الإسكيمو الآن من مؤثرات وافدة عليهم سواء من الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتى من خلال البعثات العلمية الصناعية ويقترح فى النهاية أن أفضل شىء يمكن أن يقدم لمثل هذه الشعوب هو معاونتهم على أن يتطوروا هم بأنفسهم تبعاً لطرق حياتهم وأساليب معيشتهم.. وإلا، فما

الذى سيعود عليهم لو اتبعوا أساليب الحياة الأمريكية أو الروسية ..؟

ألم ينشىء هؤلاء الناس بأساليب حياتهم التقليدية حياة سعيدة مناسبة لهم، قانعين بها مستمتعين بما فيها؟.. وهل فى مقدورنا نحن أن نقول ذلك عن أنفسنا..؟ وبنفس الأسلوب الذى انتهجه فورنو فى الحديث عن الاسكيمو يتحدث فى الفصل الرابع من كتابه عن شعب الزولو الذى يعيش فى جنوب أفريقيا The Disciplined Zulus of South Africa فقد كان الزولو من قبل ينقسمون إلى عدد كبير من القبائل إلى أن توحدوا تحت اسم واحد وهو الزولو [١٨] . والزولو هو اسم احدى الجماعات الصغيرة التى استطاعت أن توحد جميع القبائل تحت زعيمها «شاكا» امبراطور الزولو. أو كما كان يسميه الفرنسيون «نابليون الأسود» وقد وحد شاكا Shaka سكان الناتال وزولولاند فى وحدة واحدة كونت امبراطورية الزولو (١٨٠٦) وبعد أن أخضع لها عددا من القبائل. وكان شاكا مقاتلا شرسا قتل مئات الآلاف فى عمليات انشاء هذه الامبراطورية ويقال إنه قتل فى معاركه الوحشية حوالى ٢مليون نسمة ما بين رجال ونساء وأطفال وأخضع الجميع

لحكمه إلى أن قتل عام ١٨٢٨م .

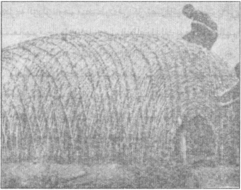
ويتميز الزولو بصلادتهم وطاعتهم لزعمائهم كما يشتهرون بأنهم محاربون نظاميون ممتازون .

وينشأ أبناء الزولو على حب النظام والطاعة . وهذه النشأة لا تقوم على أساس القهر أو الخوف من العقاب بل على أساس ضبط النفس ، وعلى أساس أن احترام النظام هو فى حد ذاته قيمة أخلاقية لابد للرجل أن يتصف بها .

فاحترام الأب ورئيس العشيرة ، وملك القبيلة هو سلوك يعتز به الزولو . وهم منضبطون فى كل تصرفاتهم نظاميون فى تجمعاتهم مجبولون على حب النظام ولذلك يوصفون بأنهم «الزولو النظاميون» Disciplined Zulus .

والسلطة فى المجتمع تقوم على أساس السن ، فالكبار يحكمون ، والشبان يحاربون ويقومون بالصيد ، أما الصبية فمسئوليتهم الرعى ، والمحاربون لا يمكنهم الزواج قبل أن يتموا تدريباتهم القتالية التى تثبت مهارتهم الحربية .

وبعد أن يتزوج أحد أبناء الزولو ينتقل إلى الكرال Kraal والكرال عبارة عن تجمعات مبعثرة تضم عددا من أفراد العائلة الواحدة .



أبناء الزولو يقيمون بيتاً على طريقتهم الخاصة - عام ١٨٩٩م

وتقوم علاقاتهم الاجتماعية على أساس الاحترام العميق بين الآباء والأقارب. فالرجل لا يمكنه أن يتوجه بالحديث إلى أبيه إذا لم يطلب أبوه منه الحديث. كما أن منزلة العم تعادل منزلة الأب. كما تخدم الخالات ويعاملن كالأمهات تماما.

والعم له مكانته وإن كان لا يتدخل فى شؤون ابن أخيه إلا إذا كان الأب والابن يعيشان بعيداً عن بعضهما فى تجمعات مختلفة، حينئذ يكون للعم سلطة التدخل فى شئون ابن أخيه كما أن الحماة تحتجب إلى حد ما عن زوج ابنتها وعلى الرغم من أن الزولو يعيشون فى تجمعات على شكل قرى إلا أن كل تجمع عائلى يعيش مع بعضه بعيدا عن الآخر. ويحاط المسكن بأوتاد طويلة على شكل بيضوى.

كما توضع الأغنام والماعز فيه طوال الليل بجانب أكواخهم التى هى غالباً ما تكون دائرية الشكل وذات سقف مخروطى. أو أحيانا على شكل خلية نحل. وتبنى هذه الأكواخ على أبعاد منتظمة داخل سور التجمع العائلى.

ولقد كان الزولو فى مرحلة ما قبل التغير الذى ارتبط بظهور الدولة القبلية يعيشون فى وحدات قرابية ذات حدود إقليمية تخضع للسلطة القرابية التقليدية لرؤساء التجمعات

(البدنات) . ولكن ما لبثت تلك البدنات أن تحولت إلى عشائر اغترابية (اكسوجامية ـ بالزواج من خارج البدنات التى تضم تجمعا عائلياً) . وفقدت البدنة وظيفتها الطبيعية حيث أدت عوامل الزيادة الطبيعية وتشتت الوحدات القرابية فى منطقة إقليمية متعددة، وبالتالى تنوع المكونات القرابية فى الوحدات الإقليمية التى ينقسم إليها وطن الزولو، إلى خلخلة السلطة القرابية التقليدية، وجعل الطريق ممهدا أمام نوع جديد من السلطة الرسمية بلغت مرحلة الاستقرار. تلك السلطة التى تحققت على يد الملك شاكا (١٩) الامبراطور الأسود .

وبعد اغتيال شاكا فى ١٨٢٨م بدأ سقوط دولة الزولو. فبعد خمسين عاما من اغتياله غزا الأوروبيون أرض الزولو. ففى ٢٢ / ١ / ١٨٧٩ ـ غــزا أرض الزولو اللورد البــريطانى «هيلمسفورد» Chelmsford ولكن محاربى الزولو اكتسحوه ومن معه من قوة عسكرية بلغ عددها ١٨٠٠ جندى. وظلت حملات الغزو تتتابع إلى أن استولى البريطانيون على أرض الزولو وعلى ما يجاورها أيضا من قبائل، وفى عام ١٩٠٧ خضعت جنوب أفريقيا للحكم الاستعمارى البريطانى .

ويعتقد الزولو أنهم يعيشون النبوءة التى تنبأ بها شاكا قبل

موته «بأنه سمع أثناء احتضاره وهو علي فراش الموت وطء أقدام الرجل الأبيض وهى تسحق شعب الزولو» . ويصارع الزولو للآن منذ (١٩٠٧) من أجل رفع أقدام الرجل الأبيض عن أيديهم. كما يفتخرون دائما بأنهم الشعب الذى هزم جيوش الرجل الأبيض أكثر من مرة. كما أنهم يثقون مع غيرهم من شعوب أفريقيا بأنهم سوف يتخلصلون من الرجل الأبيض فهم يملكون القوة الخارقة، قوة العدد الذى لا يحصى .

ويؤمنون بأن ما يفعلونه فى أرضهم هو أمر يخصهم وحدهم فقط ولا يخص غيرهم . .

ويقدم لنا المؤلف خلال حديثه الموجز عن الزولو بعض الحكايات والخرافات التى تصور نظرتهم إلى الكون، فهم بصفة عامة يؤمنون بوجود كائن أعلى، كما أنهم يعتقدون فى القوى الغيبية المسيطرة على مظاهر الطبيعة .

«والعرافون والسحرة هم الذين يستطيعون معرفة أسرارهم. فهم بإمكانهم مخاطبة الشمس وتسيير السحاب، وتهدئة الروح الغاضبة المسببة للعواصف والرعد والبرق. والسحرة، منهم المعالجون الذين يعرفون سر الموت والمرض، ومنهم صناع المطر Rain - Makers هم رعاة السحب، فالسحاب فى تصور

الزولو هو قطيع يسير في السماء . والسحرة Inianges لهم القدرة على تسييره وإسقاط المطر أو إيقافه . وهم يتصلون بالأرواح بواسطة الصفير» (٢٠) .

«الجيفارو» ، مقلصو الرؤوس ، سكان جبال الانديز الشرقية. The Head - Shrinking Jivaros of the Eastern Andes

يحدثنا المؤلف في الفصل الخامس من كتابه عن قبائل الجيفارو ساكني الجانب الشرقي من جبال الانديز هؤلاء الذين يشتهرون بقدرتهم على تقليص رؤوس ضحاياهم إلى ثلث حجمها لتصبح في حجم البرتقالة . ويعالجونها بأسلوب خاص يحفظها من العفن . . ويفتخر القناص منهم بعدد الرؤوس التي ينظمها في عقد يتباهى به ، ويشتهر «الجيفارو» بأنهم محاربون متوحشون وضرواتهم في القتال يضرب بها الأمثال .

ويقيم الجيفاريون Jivaros عند منحدرات جبال الانديز في أمريكا الجنوبية قرب منابع نهر الأمازون . ويحتلون مساحة من الأرض تبلغ حوالي (٢٥,٠٠٠ ميل مربع) في بيرو واكوادور والبرازيل . وكان تعدادهم يبلغ حوالي « ٣٠,٠٠٠ » نسمة في القرن السادس عشر ، وقد تناقص عددهم حتى أصبح في عام ١٩٧٢ عشرة آلاف نسمة .

ويعيش الجيفاريون أحراراً بلا أى حاكم. وكل جماعة لها قائدها الذى يقودهم فى الحرب ضد جيرانهم وحياتهم كلها حروب ودماء وثأر، فالصبية يشبون لكى يأخذوا بثأر أسلافهم والعائلة هى الوحدة الأساسية والبسيطة فى تنظيمهم الاجتماعى، والعائلة تتكون من ثلاثين إلى أربعين شخصا تربطهم أواصر القرابة. وتعيش العائلات فى تجمعات متقاربة، ولكن تعيش كل عائلة مستقلة بذاتها. ولا تتضمن لغة الجيفارو أى لفظة تدل على معنى الزعيم أو الرئيس.. والقائد يكون فقط أثناء الحرب، فهو الذى يقودهم فى الحرب ولا قائد بعد ذلك. فالقوى لابد أن يكون أقوى. أما الضعيف فيصبح بلا حماية.

والجيفاريون مشهورون بقسوتهم وضراوتهم وينتقلون من جبل إلى جبل، ومن غابة إلى غابة، ومن نهر إلى نهر، ليقتنصوا حياة الآخرين. ويعودون إلى تجمعاتهم حاملين رؤوس أعدائهم ليقيموا احتفالا راقصا.

ومنذ أن يولد الطفل يعد لكى يكون مقاتلا. ويدرب الاباء ابناءهم منذ سن السابعة على أساليب القتل والقتال. ويزرعون فى عقولهم منذ سن مبكرة عدم الخوف من قتل أعدائهم.

وحينما يكبر الصبى بعض الشىء يشارك فى المعارك كما يتعلم الشبان كيف يجزون رؤوس ضحاياهم .

وحينما يستعد المحاربون للقتال يلونون أجسامهم ووجوههم بالألوان فى أشكال زخرفية هندسية لكى يثيروا الخوف فى قلوب أعدائهم . وكذلك لكى يتخفوا فى ألوان الغابة المتعددة . كما يقومون أيضا بغسل وتصفيف شعورهم وتزيين أنفسهم بأجمل ما يملكون حتى إذا قتلوا كانوا فى حالة مشرفة لا تدعو للخجل أمام أعدائهم . وتبدأ احتفالات رقصات الحرب منذ منتصف الليلة التى سيذهبون بعدها إلى الحرب . ويظلون فى رقصاتهم وغنائهم إلى مطلع الفجر . ويرددون فى أغانيهم «غدا سنذهب للحرب غدا سوف نقتل . . . » .

غدا سوف نعمل تسنتاس Tsantas أى غدا سوف نجلب الرؤوس لنقلصها . .

فالجيفاريون بعد أن يصيدوا ضحاياهم يجزون رؤوسهم ويحملونها معهم ثم يقومون فى مكان تجمعهم بعمل عملية التقليص لحجم الرأس البشرية حتى تصبح فى حجم البرتقالة ، أى حوالى ثلث الحجم الطبيعى . وبعد أن تنتهى رقصات الحرب يذهب الرجال فرادى ، مع مطلع الفجر . وبعد أن يذهب الرجال

تبدأ النساء فى غناء أغانى النصر . وقد يستمر الغناء إلى أن يعود الرجال حاملين رؤوس ضحاياهم من الأعداء الذين اقتنصوا أرواحهم ثأرا للأسلاف الذين قتلهم هؤلاء الأعداء .

ويشرح الكاتب كيف يعد الجيفاريون رؤوس أعدائهم وضحاياهم بسلخ جلد الرأس وإعداد عظام الجمجمة . وهذه العملية تستغرق يوماً كاملاً ، إذ يمضى نصف اليوم -١٢ ساعة- فى إعداد الرأس للتقلص . ثم ثمانى ساعات فى سلخ الجلد ، ثم ساعتان فى ضغط الجلد وحشوه ، ليكون حجم الرأس فى ثلث الحجم الطبيعى . وهى عملية تتسم بالقسوة ، وتثير الاشمئزاز حينما يتابع الإنسان قراءة وصفها . وبعد الانتهاء من هذه العملية Tsantas يقام احتفال آخر بفرحة الانتصار .

هذه العادة ، تقليص رأس عدوهم يعتقدون أنها تزيد من قوة من يملك أكبر عدد من الرؤوس المحنطة . كما أنها ترضى أرواح الأسلاف الذين أخذ بثأرهم .

ويعتمد الجيفاريون على الصيد والزراعة ، فالرجال هم الذين يقومون بالصيد ، أما الزراعة فهى من عمل النساء . . ويقوم الرجل باختيار زوجته من بين النساء غير المتزوجات . ويقدم لأبيها مقابلا لها مما يملك . . والابنة لا تملك الرفض . . كما أن

تعـدد الزوجـات شـائع بينهم . . وعـادة يكون للرجل ثلاث زوجات الأولى فى سنه تقريباً، والصغرى أحيانا تكون طفلة لم تصل بعد إلى سن البلوغ وعادة لا يقيم الرجل أى علاقة جنسية مع زوجته الصغرى بل ينتظر إلى أن تبلغ سن البلوغ .

وحينما يريد الرجل أن يتزوج إحدى النساء التى حركت عواطفه فإنه يخضب جسمه بالألوان ويصفف شعره ويمشطه ويحرص على أن يكون مظهره حسنا ثم يذهب إلى بيت أهلها . وعادة يخلق عذرا لسبب زيارته . وحينما يدخل المنزل فإنه طبقاً للعادات تقوم النساء الموجودات فى البيت بتقديم الشراب له ، كل امرأة تقدم له شيئاً ، وحينما تحضر المرأة التى يريدها فإنه عادة يتصرف بخشونة وبجدية أكثر من اللازم . وبعد أن يشرب ما تقدمه له يرد إليها الإناء بنفس الصلف والخشونة التى يتصرف بهما .

وبعد الشراب تقوم النساء أيضا بتقديم الطعام من الموز والبطاطا وحينما تقدم له الطعام من يريدها ، فإنه يفحص الطعام الذى تقدمه ، ثم يأخذ قطعة منه ويلقى بها على الأرض . ويتم ذلك كله فى الزيارة الأولى ثم بعد ثلاثة أيام يكرر الزيارة ، ولكن فى هذه المرة يذهب إلى النهر ليستعين بوحش الماء

الاسطورى «تسونجى» Tsungi لكى يساعده فيغنى أغنيات خاصة بهذه المناسبة. وفى هذه المناسبة يعد مسحوقا من بعض النباتات له تأثير السحر على من يريدها فتحبه وتوافق على الزواج به، كما يحمل معه فى هذه الزيارة بعض الهدايا.. فإذا كانت الفتاة التى أرادها موافقة عليه. فإنه في هذه المرة تظهر له بعض الاهتمام به فى أثناء تقديم الشراب أو الطعام بل قد تسأله لماذا لم يحضر من قبل؟ من هذا الاهتمام الذى تبديه الفتاة بحضوره، يعرف أنها موافقة على الزواج به. يبدأ بعد ذلك فى الاتفاق مع أبيها. والأم عادة لا يكون لها شأن ظاهر فى موضوع الزواج من الناحية النظرية. ولكن، فى الواقع، هى التى تتخذ القرار.

وأهم ما يثير اهتمام المرأة فى الرجل هو قدرته على الحرب والصيد ومقدار ما حصل عليه من الرؤوس المقلصة Tsantas .

وكما ينهى الكاتب كل فصل من فصول كتابه بالتساؤل عن مستقبل هذه الشعوب بعد غزو الرجل الأبيض لهم ودخول الصناعة والبحث عن البترول واكتشافات المناجم، فإنه ينهى هذا الفصل عن «الجيفارو» دون أن يبدى روح التعاطف التى نلمسها أحياناً منه عند الحديث عن هذه الشعوب الأصيلة فى

مكوناتها التاريخية وعزلتها الإنسانية عن الحضارة. ولا شك أن قسوة الجيفاريين فى معاملة أعدائهم، وعاداتهم فى سلخ جلد الرأس وتقليص حجم الرأس ليصبح فى حجم البرتقالة، وحمله كعقد يزين صدورهم ويعبر عن قوتهم، تجعل الإنسان فعلا يدير وجهه ناحية أخرى. ويختم فورنو حديثه فى هذا الفصل عن الجيفاريين بعبارة قاسية أيضا بأن البيئة التي عاشها الجيفاريون آلاف السنين سوف تدمر.. فالأسلحة النارية الآن أقوى من شراسة المقاتلين.

وينتقل بنا فورنو إلى جماعة بشرية أخرى هم أقزام أفريقيا الاستوائية The Little People of Equatorial Africa هؤلاء الناس «الصغار» الذين عاشوا آلاف السنين فى أفريقيا، كما وجد نظير لهم أيضا فى نيوغينيا New Guinea وفى الفلبين وسيلون وجزر الاندامان فى المحيط الهندى. وهم سلالة قديمة متميزة فى أفريقيا مثلهم مثل البوشمان أقدم سلالة من البشر عرفتها أفريقيا. ولا يزيد البوشمان حاليا على ٧٥٠٠ نسمة هؤلاء الذين سكنوا صحراء كلاهارى فى جنوب أفريقيا، ثم لجأ معظمهم إلى السهول المستنقعية المليئة بالبحيرات المائية فى الجنوب الغربى من أفريقيا ومن أنجولا.

وقد صدر العديد من الدراسات التى تناولت حياة البوشمان باعتبار أنهم أقدم الشعوب الأفريقية، وخلافا لما نعرفه عن البوشمان فإن الأقزام فى الغابة الاستوائية يعيشون على اتصال محدود مع جيرانهم السود، الذين يقدمون لهم اللحوم ويأخذون مقابلها الموز وزيت الأراشيد arachides كما نجد كل جماعة من الأقزام يحميها زعيم أسود، وينتقل عبء الحماية من بعده إلى ولده.

وقد عاش هؤلاء الأقزام African Pygmies فى أفريقيا منذ آلاف السنين، وقد جلب قدماء المصريين بعضا منهم إلى مصر منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة كما أن كلا من هوميروس وهيرودوت ذكرهم فى كتاباته التاريخية وكلها دلائل تاريخية على وجودهم منذ أزمان سحيقة وطول القزم يبلغ حوالى ١٣٥سم. أى حوالى طول الطفل الذى يبلغ من العمر تسع أو عشر سنوات.

وقد يرجع سبب توقف نمو الأقزام إلى خلل فسيولوجى فى الغدد، كما أن ألوانهم ليست سوداء فلونهم في الأغلب بنى قاتم، وجمجمة الرأس مستديرة وقصيرة، وحجم الرأس هو حجم عادى، ولكن أرجلهم قصيرة فى حين أن أذرعهم طويلة نسبيا.

ويبلغ تعداد الأقزام حوالى ٢٥ ألف نسمة وهم يختلفون فسيولوجيا عن الزنوج، كما أن دماءهم تنتمى إلى المجموعة (أ، ب) (A), (B) فى حين أن دماء الزنوج تنتمى إلى المجموعة (o) والأقزام مغرمون بالصيد بالقوس. والقوس على شكل مقطع دائرى، ويصنع من شجر نخل الهند – Rotu ثم يثبت فى طرفيه حلقتان من الخشب. وكذلك يصنع السهم من الخشب الرفيع القاسى الذى يعرضونه مدة من الوقت فوق النار وهذه السهام تحمل فى رؤوسها نوعا من السم المستخلص من بعض النباتات. أما طقوس الصيد فكانت تستدعى مشاركة النساء حيث يرقصن طوال الليل الذى يسبق الخروج لصيد أحد الفيلة.

وتصف لنا دنيس بولم (٢١) طريقة صيد الفيلة، وهى نفس الطريقة التي وصفها فورنو فى كتابه من حيث إنهم يهجمون على الفيل بالحراب ويركزون هجومهم على قوائمه الخلفية وآخرون يهجمون على قوائمه الأمامية.

فالأقزام يحتقرون عمل الفخاخ بل يهجمون على الفيل بتعويق قدرته على السير. وما إن يسقط الفيل على الأرض حتى يهجمون عليه ويقطعون خرطومه محدثين بذلك نزيفا مميتا.

وفى بعض الأحيان يخاف الصيادون الهجوم على أرجل

الفيل خوفا من أن تطأهم قوائمه الكبيرة ،و لذلك فإنهم يقتربون من الفيل ويطلقون حرابهم المسننة على بطن الفيل وأحيانا تكون هذه الحراب مسممة فيسقط الفيل من تلقاء نفسه .

كما يستخدمون أيضا الشباك لصيد بعض الحيوانات ، والشبكة يبلغ طولها حوالى عشرة أمتار تقريبا وارتفاعها حوالى المتر . وتوضع هذه الشبكة حول بعض الشجيرات على شكل نصف دائرة . وبعد تركيزها يبدأون بإطلاق الصيحات وبتحريك أغصان الشجر ليدفعوا الطريدة نحو الشبكة . والوعول التى تسقط فى هذه الشبكة إذا كانت صغيرة فإنهم يقبضون عليها أما إذا كانت كبيرة فإنها تقتل فى الحال .

وحينما يصيدون فيلا يقيمون احتفالا كبيراً ، ويزينون عنق الفيل بالزهور ويغنون أغنية جماعية تقول كلماتها ما معناه فى مخاطبة الفيل الذى صادوه :

آه . . أيها الفيل الأب

إن حرابنا قد شردت عن سبيلها

آه . . أيها الفيل الأب .

لم نقصد أن نقتلك .

لم نقصد أن نؤذيك
آه . أيها الفيل الأب .
لم يكن المحارب هو الذى أخذ حياتك
بل إن ساعتك هى التى اقتربت
لا تأتى ثانية لتهدم أكواخنا
آه . . أيها الفيل الأب .

ثم يضيفون زهوراً جديدة حول عنق الفيل وهم يقولون أيضا في غنائهم :

لا تغضب منا
من الآن ستكون حياتك أفضل
إنك تعيش فى أرض الأرواح
آباؤنا سوف يذهبون معك
ليجددوا عظامك
إنك تعيش فى أرض الأرواح
هنا سوف تستريح إلى الأبد
ومن الآن تبقى فى سلام
هنا أبناؤك
نأمل أن لا يحل غضبك عليهم .

ثم بعد الغناء والرقص يبدأون فى إعداد طعامهم من لحم الفيل، الذى يكفى عدة عائلات ويكون مناسبة لإقامة احتفال يشارك فيه الجميع.

وتقام مثل هذه الاحتفالات بشكل أصغر لغير ذلك من الحيوانات. ومن طعامهم أيضا النمل، إذ يجمعون النمل ويأكلونه مسلوقا أو مشويا كما يأكلون أيضا عسل النحل.

ومن عادة الأقزام فى أفريقيا أنهم بعد قتل الطريدة والانتهاء منها ينتقلون إلى مكان آخر ودون أن يتخطوا حدود مناطقهم الواسعة، والتي يعرف كل فرد حدودها التى تعين بواسطة جدول أو خندق كبير. والنظام الاجتماعى عندهم يعتمد على نظام الأسرة، فالأسرة هى النظام الاجتماعى الأساسى والزواج يقوم على أساس نظام المبادلة reciprocal system (رأس برأس) فالخطيب مثلا يعطى أخته أو إحدى قريباته إلى جماعة خطيبته. وإذا كانت إحدى النساء التى وقع عليها التبادل عقيما، فلزوجها الحق بطلب واحدة أخرى. وهذا يفسر بأن تعدد الزوجات لم يكن منتشرا كثيراً. كما يوجد نظام الزواج من الخارج.. فقد يحدث أن يأخذ أحد السود من غير الأقزام امرأة من الأقزام، نظير تقديم تعويض عنها إلى عائلتها. وأخذ هذا

النوع من شراء الزوجات في الانتشار وظهر مزيج من الأقزام والزنوج يسمى Pygmoids والزواج من الخارج إلزامى فى العائلة الواحدة وليس فى العشيرة كلها كما لا يوجد ترابط بين العشائر وكذلك لا توجد سلطة قبلية. أما التقاليد التى ترتبط بالسحر فإنه لا يمكن تمييزها عن تلك التقاليد الموجودة عند جيرانهم من الزنوج، كإشعال النار لطرد العاصفة ورمى أوراق الأشجار فيها لتبعث دخانا كثيفا. وكذلك تثبيت قطعة الخشب - التى شحذ بها الوعل قرنيه - فى القوس للتفاؤل بصيد وافر. أو وضع بعض الأغصان الصغيرة التى لمستها الصاعقة فوق الكوخ لكى تبعد الصاعقة عنه.

والأقزام يظهرون تقديراً واحتراما للموتى سواء بتقديم الطعام للأرواح، أو من خلال الطقوس التى يطلبون فيها العون من أجدادهم قبل بدء عملية الصيد. ويشير فورنو بعد ذلك فى نهاية حديثه إلى أن الأقزام الأصلاء سوف ينتهون خلال سنوات قليلة قادمة ويحل محلهم المزيج الجديد من الأقزام المخلطين Pygmoids تلك السلالة التى نشأت من زواج السود بالأقزام. ثم يختم حديثه بتقديم نماذج من الحالات التى واجهها الإنسان القزم مع الإنسان الأبيض، وبعثات التبشير ومع جيرانه من

السود زنوج أفريقيا . ومدى الاستهانة التى لقيها الإنسان القزم من أخيه الإنسان لا لشيء سوى لفروق فى شكل الجسم مع أن حجم الرأس واحد .

والواقع أنه على الرغم مما يتسم به حديث فورنو عن الشعوب المتخلفة حضاريا فى أفريقيا أو استراليا ونظرته الرومانسية أحياناً إلى هذه الحياة البدائية إلا أننا نلاحظ فى نفس الوقت أن حديثه رغم ما يتضمنه من معلومات، ينقصه الخبرة العملية والدراسة المتعمقة لحياة هذه الشعوب . . كما أن الكاتب لا يقدم لنا قائمة بالمراجع العلمية التى اعتمد عليها، حتى يتسنى للقارئ أن يرجع إليها للاستزادة من بعض المعلومات، كما لا يتضمن الكتاب تعريفا بكاتبه حتى نستطيع أن نتعرف على تخصصاته العلمية ومجالات اهتمامه الفكرية .

وإذا قارنا هذا الكتاب بغيره من الكتب التى وضعت عن شعوب أفريقيا السوداء أو عن غيرهم من الشعوب التى تحيا حياة بدائية . لا حظنا أن هذا الكتاب يكاد أن يكون أكثر مقالات علمية عن عشر جماعات إنسانية وليس دراسات بالمعنى الأكاديمي . وقد تبدو أهمية هذا الكتاب أيضا من نفس الزاوية التى يمكن أن ينتقد منها فهو يقدم للقارئ غير

المتخصص وبأسلوب سهل معلومات هامة عن حياة وثقافة هذه الشعوب باعتبار أن ما يقدمه من مادة أدبية عن حياتهم تصور لنا ببساطة ووضوح أيضا أهم معالم ثقافتهم وأبرز أساليب حياتهم.. وتصوراتهم لوجودهم والوجود المحيط بهم داخل بيئتهم المحلية.

ولكن يجد الإنسان نفسه إزاء ما يقدمه من معلومات عن هذه الشعوب يتساءل، لماذا يتسم حديث فورنو عن شعوب الشمال بنغمة تختلف عن نغمة حديثه، حينما يتناول حياة أهل الجنوب السود أو الملونين..؟

هل يرجع ذلك إلى الاختلاف الواضح بين ثقافات هذه الشعوب الشمالية عن غيرها؟ أم لأن فورنو نفسه رغم ما يؤكده في حديثه من تعاطف مع هذه الشعوب لا يستطيع أن يتخلص من رواسب الاستعمار الثقافي والبشرى الذى مارسه الإنسان الأبيض مع هذه الشعوب منذ بدايات النصف الثانى من القرن الثامن عشر حينما شارك Tobias Furneaux توبياس فورنو كلا من كابتن كوك Cook وصمويل وليس Samuel Wallis رحلتهم الثانية ومعهم أيضا سير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks الذى سبق الإشارة إليه عند الحديث عن سكان جزيرة كارفار،

فقد جلب فورنو Tobias Furneaux معه إلى انجلترا أحد مواطنى جزر تاهيتى. وقد عاش هذا التاهيتى فى انجلترا سنتين إلى أن عاد إلى موطنه مع كوك فى رحلته الثالثة والأخيرة. كما يثير الكتاب تساؤلات أخرى غير علمية وإن كانت إنسانية.. عن ما الذى حمله الإنسان الأوروبى المتحضر إلى هذه الشعوب غير الأمراض وتشغيلهم فى المناجم وحمل الأثقال طوال قرن ونصف على الأقل؟ هذا غير استغلال هذه الشعوب على أرضهم أو استرقاق البعض منهم خارج أرضهم.. وهل أعطى التبشير المسيحى لهم منزلة فكرية جديدة أم ما زالوا ينظر إليهم كجنس حفرى Fossil Race وآثار حية؟

أسئلة كثيرة يثيرها الحديث عن هذه الشعوب التى عاشت فى عزلة عن العالم..

وبعد أن قدم فورنو في الفصل السادس من كتابه جوانب من حياة الأقزام فى أفريقيا الاستوائية؛ قدم فى الفصل السابع قبائل اللاب الاسكندنافية الرحل The Nomad Lapps of Scandinavia هؤلاء الذين وصفهم جيمس طومبسون James Thompson فى قصيدته الفصول "The Seasons" بأنهم الجنس السعيد حقا لأن سعادتهم مضاعفة ثلاث مرات Three Happy

Race فـفقرهم وعزلـتهم حفظهـما من شـرور العالم. وقناعتهم بمعطيات الطبيعة البسيطة أمنتهم من الصـراع والجشع. واللاب الآن مثلهم مثل غيرهم من الشعوب التى كانت يوما بدائية.

فهـؤلاء الذين عاشـوا لا يطلبـون من الحيـاة أكـثر من مـجـرد البـقـاء، أصبـحوا الآن يطلبـون من الحـياة أكـثر مما عـاشـوه منذ «٥٠٠٠ سنة تقريبا».

ويبلغ عـدد اللاب حاليـا حوالى «٣٢٫٥٠٠» نسـمـة، يعيش عـشـرون ألفـا منهـم فى النرويج، ٨٫٥٠٠ نسـمـة فى السـويد، ٢٫٥٠٠ نسـمـة فى الـدول الأربع شـعب اللاب على أسـاس أنه شـعـب واحـد وكل دولـة تحـاول أن تجـذبهم إلى منطقـتـهـا وتخضعهم لنظام الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها.

ومع ذلك فـإن كل دولة أيضـا تعـاملهم على أسـاس أن لهم ثقافتهم الخاصة وحقوقهم وواجباتهم التى ترتبط بواقع حياتهم وطبـيعـة نظمهم الثقافيـة والاجتمـاعـية. لذلك فـاللاب أكـثر الشـعوب البـدائيـة حظا من حيث معاملة الآخـرين لهم. ولحسن الحظ أن الاهتـمـام بحـيـاتهم ودراسـة عـاداتهم بدأ منذ قـرون عديدة.

هؤلاء النـاس الذين لم يطلبـوا فى حيـاتهم شـيـئـاً أكـثـر من

معطيات الطبيعة البسيطة، عاشوا حقبا طويلة من الزمن قانعين بما لديهم، سعداء بما يحوطهم. وقد تعددت الآراء حول أصولهم العرقية مثلما تعددت حول أصل أو أصول شعب الإسكيمو. فقديما افترض أنهم من الجنس المنغولى، ثم عزلوا عن المنغوليين فى هجرات قديمة. ولكن هذا الرأى يجافيه لون عيونهم الزرقاء كما أن شكل عيونهم يختلف عن شكل عيون المنغوليين. كما رجح رأى آخر أنهم قدموا إلى المنطقة المتجمدة الشمالية من جبال أورال كجماعات مهاجرة إلى الشمال، مع حركة انحسار الثلج وقبل أن تعرف أوروبا الزراعة. كما أنه على الرغم من تشابه لغتهم مع مجموعة اللغات الفينو - أو جريه Finno-Ugric إلا أنهم فسيولوجيا لا يشبهون الفنلديين. ويفترض رأى آخر أنهم بقايا عنصر أبيض مفقود.

ويتميز اللاب بأنهم قصار القامة مثل الاسكيمو. يبلغ طول الواحد منهم حوالى ١٥٠ سم، وسيقانهم قصيرة. ورؤوسهم مستديرة. ووجوهم عريضة، وأنوفهم دقيقة. وشعرهم بنى اللون أو أسود. كما يتمتعون بصحة جيدة وقوة ممتازة. ويستطيع الرجل منهم التزلج على الجليد بسرعة ٦ أميال فى الساعة لمدة يومين ليلاً ونهاراً دون توقف للراحة. كما أنهم

يتميزون بقدرة عقلية ممتازة وبعيدين عن أى أمراض عقلية. وصحتهم جيدة ويعمرون مدة أطول من غيرهم من الشعوب البدائية، وقد يكون سبب ذلك الحياة الهادئة التى يعيشونها.

وقد اكتشف الرحالون الذين زاروهم أنهم شعب مسالم مهذب أكثر من الشعوب الاسكندنافية التى تجاورهم.

ويقدم المؤلف بعد ذلك وصفا لحياة اللاب كما وصفهم بعض الرحالين الرومانيين، وبعض المؤرخين فى العصور الوسطى.

فقد وضع القس أولوس مانجوس Olaus Mangus عام ١٥٥٥ كتابا بعنوان «تاريخ شعوب الشمال» History of the people of the North (1555) تضمن خريطة رسمها سنة ١٥٣٩ تبين أماكن انتشارهم. وطرق تزلجهم على الجليد وكيف أنهم يتزلجون بسرعة كبيرة ويحاورون فى تزلجهم سواء على رجل واحدة أو الاستعانة بعصا تساعدهم على الحركة وتغيير اتجاهاتهم بسرعة. كما وصفهم مانجوس بأنهم رعاة غزال الرنة. وبعد كتاب مانجوس تم عدد من الدراسات الاثنوجرافية. فقد شجع كتابه عدداً من الباحثين الاثنوجرافيين لعمل دراسات عن هؤلاء الناس الطيبين السعداء.

وفي نفس القرن السادس عشر زار ثلاثة من المكتشفين البريطانيين منطقة اللاب . وقد جمع أحدهم وهو ستيفان بورو Stephan Borough (١٥٥٧) مجموعة من كلمات لغة اللاب .

كما لاحظ زميله ريتشارد جونسون Richard Johnson أن اللاب يعيشون في خيام مصنوعة من جلود الغزلان ويأكلون اللحم نيئاً كما يشربون . أما زميلهم الثالث انتوني جينكنسون Antony Jenkinson فقد كتب عنهم قائلا : إن أرض اللاب هي أرض مرتفعة مغطاة بالجليد طوال العام وهم مهذبون إلى حد ما . يعيشون في الصيف قرب البحر ويعتمدون على صيد الأسماك ويصنعون من السمك خبزهم . وفي الشتاء يرحلون إلى الغابات حيث يصيدون الوحوش من غزلان ودببة وذئاب وغير ذلك من الحيوانات الضارية مما يستخدمون لحومها في الغذاء وجلودها في الكساء ويغطون أجسامهم فلا يظهر منها غير العيون .

كما أنه لا مساكن لهم غير خيامهم التي يتنقلون بها من مكان إلى مكان تبعا للموسم كل عام .

وتشارك النساء الرجال في العمل والصيد . كما وصف رحالة آخر هو جيلز فليتشر Gils Fletcher اللاب في سنة

١٥٨٨ بأنهم صيادون ممتازون.

ويقدم فورنو عدداً من الدراسات والكتب التى كتبت عن حياة اللاب ويشير إلى الدراسة الانثولوجية التى أعدتها الباحثة الانثولوجية الدانمركية «ايميلى ديمانت Emilie Demant» سنة ١٩٢٠. حيث عاشت مع أسرة من اللاب عاما كاملا. وقد تعلمت ايميلى خلال هذه المدة كيف تحبهم ويحبونها. وفى عام ١٩٢٨ نشرت كتابها «مع اللاب فى أعالى الجبال With Lapps in High Mountains» وفى سنة ١٩٣٢ تأسست جمعية المحافظة على ثقافة اللاب، وفى سنة ١٩٤٥ تكونت جمعية المحافظة على حيوان الرنة.

وحياة اللاب القدامى كانت تقسم إلى ثلاث مجموعات إحداها تعتمد على صيد الأسماك والحيتان، والثانية تعتمد على حياة الصيد فى الغابات، والثالثة تعتمد على حياة الرعى فى الجبال.

ويصنع اللاب كل ما يحتاجون إليه من ملابس وخيام وأدوات، كما تزين النساء ملابسهن بألوان زاهية. وتعتمد حياتهم الاجتماعية على صلات القرابة، فكل مجموعة من العائلات تعيش مع بعضها مكونة وحدة المجتمع والكل يشارك

في المسؤوليات والواجبات وكل جماعة يحكمها مجلس من أبناء الجماعة. كما أن الكلب وغزال الرنة هما الحيوانان اللذان يعتمدون عليهما. فالكلاب للحراسة والرنة لجر الزحافات على الجليد. تلك الزحافات التي تحمل ثيابهم وأدوات الصيد والخيام. كما تحمل الأطفال الذين دون سن الخامسة ويعتقد اللاب في وجود أرواح خيرة وأخرى شريرة. كما يعرفون السحر بل ويشتهرون به.

وقد تضمن هذا الفصل عدداً من المراجع والكتب التي أشار إليها المؤلف خلال حديثه عن اللاب. ثم ينتقل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من البشر ما زالت تعيش في العصر الحجري من تاريخ الإنسان. هؤلاء الذين عاشوا في عزلة عن العالم بأسره آلاف السنين في وادى باهيم في جزيرة نيوغينيا، وقد اكتشف وجودهم مصادفة قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، حينما سقطت طائرة نقل أمريكية من نوع د. س -٣ تحمل مجموعة من الرجال والنساء من أفراد الجيش الأمريكي كانوا يقومون برحلة جوية للنزهة واصطدمت الطائرة بالجبال في نيوغينيا Dutch New guinea في منطقة لم تكن مسجلة على الخرائط من قبل.

وقد بقى حيا من ركاب هذه الطائرة ثلاثة أشخاص فقط. وقد اكتشف وجود هؤلاء الأشخاص الثلاثة مجموعة من مواطنى هذه المنطقة، وقد عامل هؤلاء المواطنون، الذين يحملون فؤوسا مدببا مصنوعة من الحجر، ركاب الطائرة الأحياء برقة ولطف وقدموا لهم الطعام والمأوى. وكما قالت واحدة من هؤلاء الثلاثة وهى العريف «مارجريت هاستنجس» Margaret Hastings «أنهم من أحسن وأرق الأصدقاء الذين عرفتهم» وقد ظل هؤلاء الثلاثة مع المواطنين الأصليين لمدة ستة أسابيع إلى أن استدلت على وجودهم إحدى الطائرات عبر وادى باهيم Valley of Bahiem. ومنذ ذلك الوقت أخذ الإنسان الأبيض ينكب على «ناس العصر الحجرى فى نيوغينيا» The Stone Age Man of New Guinea. ونفس الشيء سبق أن حدث فى عام ١٩٣٣ حينما اكتشفت مجموعة أخرى في الطرف الجنوبى من نيوغينيا. فقد ذهب ثلاثة أخوة يسمون «ليهى» Leahy للبحث عن الذهب وبدلا من العثور على الذهب عثروا على مجموعة بشرية أخرى تنتمى إلى العصر الحجرى يعيشون فى وادى واجرى Wahgri وهكذا تم اكتشاف هذين العالمين المفقودين Lost Worlds فى منتصف القرن العشرين، كما عثر

أحد الصيادين في عام ١٩٦٦ على كهف عميق في إحدى الغابات تعيش فيه قبيلة تتكون من عشرين شخصا يعيشون في عزلة تامة عن العالم منذ ألفي عام تقريبا.

ثم يروى فورنو فى هذا الفصل الثامن من كتابه وصفا لحياة سكان هذه المناطق وطبيعة الحياة البدائية التى يعيشونها وشكل العلاقات الاجتماعية.. ثم كيف انتشرت جماعات التبشير المسيحى بين هؤلاء الناس. وأمكن (ترويض) حياتهم وفقا لاحتياجات الإنسان الأبيض وتشغيلهم فى أعمال يدوية بسيطة فى الحمل ونقل الأمتعة والعمل فى المناجم. ويختتم حديثه عن هذه المجموعات البشرية بالتساؤل عما إذا كان هؤلاء البشر سيعيشون «سعداء» كما كانوا من قبل فى حياتهم البسيطة البدائية بعد أن أخذت حياة المدنية الحديثة تزحف عليهم.

ولاشك أن الدراسة التي قدمها ايرنجتون عن سكان جزيرة كارفار - تقدم لنا معلومات أوفر وأدق من حديث فورنو عن سكان هذه المناطق التي تقع شمال استراليا. كما أن حديثه فى هذا الفصل الموجز لا يقدم لنا معلومات وافية عن حياة هذه المجموعات البشرية التي تعيش فى نيوغينيا ويرجع تاريخها إلى آلاف السنين وهم يعيشون فى عزلة تامة عن العالم.

يعيشون فى نمط الحياة الذى سجله الإنسان القديم منذ «٢٠،٠٠٠ سنة» على جدران الكهوف.

فسكان هذه المناطق فى داخل وعمق نيوغينيا يشبهون كثيرا سكان استراليا Australian Aborigines فبعض القبائل تحمل ملامح من العنصر الزنجى، وبعض آخر يماثل المنغوليين. ويعيش حوالى «١٦٠،٠٠٠» نسمة منتشرين فى وادى واجرى Wahgri فى مجموعات قبلية.

وهؤلاء قد أمكن التعرف على بعض أنماط حياتهم أكثر من هؤلاء الذين يعيشون فى الشمال. البعض منهم قصير القامة كالأقزام والبعض الآخر طوال القامة، كما أن بعض القبائل هادئة والبعض الآخر عدوانى الطبع. كما أنهم يتحدثون بلغات مختلفة. كل مجموعة أو قبيلة منهم لها لغتها أو لهجتها الخاصة.

وهذه القبائل تعيش فى صراع دائم وحروب مع جيرانها. وتعتمد سياسة حياتهم، كما يقول فورنو فى نهاية حديثه عنهم، على الصراع من أجل البقاء.

بعد ذلك يحدثنا فورنو فى الفصل قبل الأخير من كتابه عن سكان الجزر النائية فى المحيط الهادى تلك الجزر الصغيرة

المتناثرة التى عاش فيها الميلانيزيون Melanesians والبولينيزيون Polynesians آلاف السنين، يتنقلون بقواربهم من جزيرة إلى جزيرة وكل جزيرة تبعد عن الأخرى حوالى ٢٠٠٠ ميل - وتغطى هذه الجزر مساحة تبلغ حوالى «٢٠٠٠٠٠ ميل مربع». وأهم الجزر تاهيتى وهاواى ونيوزيلاند والجزيرة الشرقية وقد اشتهرت تاهيتى وهاواى بجمال مناظرها الطبيعية وحسن ضيافة أهلها كغيرهم من سكان الجزر المتناثرة.

وقد عاش سكان هذه الجزر فى هدوء وسلام حتى سماهم الأوروبيون «النبلاء المتوحشون» أو «المتوحشون النبلاء» - إذ يتميزون بدماثة السلوك ورقة المعاملة.

وسكان هذه الجزر بطبيعة حياتهم فى جزر صغيرة يتنقلون بينها وصفوا بالملاحين لخبرتهم فى فنون الملاحة البحرية البسيطة ومعرفة مسالكهم فى البحر من خلال تأملهم للنجوم. وقد أطلق عليهم اسم الارجوناوتس Argonauts أى الملاحون الأشداء نسبة إلى أرجوس Argos أول من صنع سفينة فى الأساطير اليونانية القديمة، ليبحر - بها ياسون Jason ابن أيسون Aeson مع رفاقه الخمسين من آلهة الإغريق وأبطالهم وأنصاف الآلهة مثل هرقل وتسيوس وأفيوس ونسطور وغيرهم،

ليبحروا بسفينة أرجوس بحثا عن الجزيرة الذهبية بمملكة كولخيس وأطلق على هذه المجموعة من شباب اليونان المغامرين اسم الارجوناوتس نسبة إلى سفينتهم التي بناها ارجس Argos وقد وصف أيضا سكان هذه الجزر بالمحملقين في النجوم The Star Gazing نظرا لمهارتهم في معرفة مواضع النجوم. وهذا الفصل التاسع من الكتاب عن هؤلاء الملاحين ساكني جزر المحيط الهادى The Star Gazing Argonauts of the Pacific هذه الجزر التي نالت شهرة كبيرة بين الفنانين والأدباء. فتاهيتي سجلها جوجان في أجمل لوحاته، وصورها الأدباء بأنها جزر المجتمع الرومانسي الذي تخيله جان جاك روسو Jean Jaques Rousseau ذلك المجتمع المثالي الذي يعيش أهله في سعادة وحب وإخاء مع الطبيعة وجمالها وبساطتها التلقائية.

ويشرح فورنو تاريخ احتلال هذه الجزر بواسطة الانجليز والفرنسيين، وكيف أن تاهيتي اكتشفت بواسطة الكابتن صمويل وأليس الانجليزي سنة ١٧٦٧. أما جزيرة هاواي فقد اكتشفها جيمس كوك سنة ١٧٧٨. ولا يقدم لنا فورنو في هذا الفصل شيئاً كثيراً أو جديدا عن حياة سكان هذه الجزر وبخاصة أنه صدر العديد من الدراسات الأثنوجرافية عن سكان

هذه الجزر قام بها مجموعة من الباحثين الاثنوجرافيين وبخاصة الأستاذ مالينوفسكى[٢٣].

ويشتهر سكان هذه الجزر بالحب.. حب كل شيء يحوطهم أو يفد إليهم.. كما يرحبون بضيوفهم، وأسلحتهم لا تزيد على أسلحة الصيد البسيطة.. وهم يمارسون الحب بكل أشكاله وفي توافق تام مع الطبيعة دون نزعات عدوانية.. فالحب هو نمط التوافق بين الإنسان والإنسان.. والإنسان والطبيعة، والعلاقة الجنسية عندهم تعنى الحب، فهي مصدر من مصادر السعادة العاطفية.

كما أن العاطفة البهيمية تنضج بالحب من خلال الزواج- ونظام الزواج عندهم هو النظام الأمومي- وكذلك الزواج الجمعي وللمرأة أن يكون لها أكثر من رجل.. وقد وصفهم الأوروبيون بأنهم يعيشون فى حالة من الإباحية الجنسية Promiscuity نظرا لذلك.. فقد رحب مواطنو هذه الجزر بالإنسان الأبيض حينما وفد إليهم ترحيبا كبيراً. «هؤلاء البيض القادمين من البحر» كما تشتهر هذه الجزر بمناظرها الطبيعية الخلابة وبمناخ يجمع بين الاستوائى والجليدى. فعلى قمم الجبال يتراكم الجليد كما تثور بعض البراكين. وعلى

الساحل تتماوج نسمات باردة مع لقاء الموج بالشاطىء.. ومن أهم الزراعات عندهم القصب والأناناس والأرز والقطن.

كما تشتهر الجزر بحيوية نسائها ورقصاتهن الاحتفالية الطقوسية.

وتعتبر من أجمل الجزر السياحية فى المحيط الهادى. كما أن البولينيزيين والميلانزيين يعتبرون أنهم أكثر تقدما من غيرهم من الشعوب البدائية.

ثم ينتقل المؤلف فى إيجاز أيضا إلى مجتمع «الريف» هؤلاء المتواضعين الذين يعيشون فى شمال المغرب The Modest Rifi of Northern Morocco فيحدثنا عن قبائل الريف التي تسكن المنطقة الجبلية المتاخمة لساحل البحر الأبيض المتوسط فى شمال المملكة المغربية.

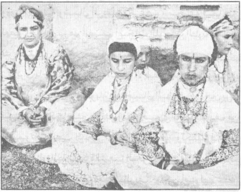
تلك المنطقة التي قاومت الاستعمار الأسبانى فلم تخضع إلا سنة ١٩٢٦ عندما تعاونت القوات الفرنسية مع الأسبانية فى التغلب على الثورة التي قادها الأمير عبد الكريم الخطابى. وظل نضال هذه المنطقة مستمرا إلى أن ألغيت الحماية الأسبانية عن هذه المنطقة وأصبحت جزءا من المملكة المغربية.

والريفيون مشهورون بتواضعهم الشديد مع قدراتهم القتالية

الممتازة فهم لا يحبون التحدث عن أنفسهم، كما لا يحبون التدخل في شئون الآخرين، فحب الاستطلاع وحب الظهور هما سلوكان ينقصان من قيمة الإنسان.

وقد تباينت الآراء فى أصل قبائل الريف فالبعض يرجح أن تكون أصولهم ترجع إلى أصول بربرية. ولكن البربر بصفة عامة ليسوا طوال القامة، كما أن شعرهم معقوص أسود وعيونهم سوداء أيضا، فى حين أن سكان الريف طوال القامة وعيونهم زرقاء، لذلك يعتقد بعض آخر أنهم أصلا من سكان أوروبا الجنوبية وشمال أفريقيا منذ عصور سحيقة فيما قبل العصر الجليدى. وهم أنفسهم أصحاب اللوحات التاريخية التى عثر عليها فى كهوف جنوب فرنسا.

ويرى باحثون آخرون أن الشعر الأصفر الذى يتميزون به، يرجع إلى عزلتهم الطويلة فى الجبال الباردة. فى حين يرى غيرهم من الباحثين الأنثروبولوجيين، أن أهل الريف من مجموعة شعب البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم فقدوا ملامحهم الوراثية المميزة لشعب البحر الأبيض المتوسط نتيجة انعزالهم مدة طويلة فى جبال الريف. ولكن أصولهم غير معروفة لأنهم لا يتحدثون عن أسلافهم.. إنهم لا يحبون الكلام



سيدات من أهل الريف المغاربة يقيمون احتفالاً طقسياً بمناسبة العرس

عن أنفسهم أو يروون أشياء قد لا يصدقها البعض فيعتبرهم كاذبين.

ويذهب بعض المؤرخين القدامى إلى أن تاريخ أهل الريف يرجع إلى عصر الفينقيين أى حوالى ١١٠٠ ق.م، فقد كانت لهم مدينة كبيرة فى الحافة الشرقية من جبال الريف وهى مدينة ميليللة Melilla كما سمى الرومان الأراضى التى تلى جبال الريف موريتانيا.

أما العرب فقد دخلوا المغرب على مرحلتين الأولى فى القرن السابع الميلادى والثانية فى القرن الحادى عشر. وقد اعتنق سكان الريف الديانة الإسلامية. كما شارك الريفيون فى فتح أسبانيا إلى أن غادروها فى عام ١٤٩٢م .. ويقدم فورنو أيضا معلومات أخرى عن تاريخ الريف هؤلاء الذين كان تعدادهم سنة ١٩٢٠ حوالى ٤٠,٠٠٠ نسمة. كما تناول فورنو أيضا بعض الأعراف الشائعة بينهم والمجالس العرفية التى تمثل القضاء وتفصل فى الخصومات التي تقوم بين الأفراد سواء بفرض العقوبات على جرائم القتل، نظام الدية أو الطرد خارج القبيلة. وكذلك عادات الثأر[٢٤]. وكل ذلك يقدمه فورنو فى إيجاز وعرض سريع. وهذه النظم هى النظم التى تخضع لقواعد

الشريعة الإسلامية والتقاليد العربية. كما يشرح أنواع الملابس التي يرتديها الرجال وبخاصة الجلابية المغربية المشهورة. أما نظام تعليم الأطفال فيعتمد على حفظ القرآن وقواعد الشريعة الإسلامية، ثم يختتم حديثه بفقرة عن عبد الكريم الخطابي ذلك الثائر زعيم قبائل الريف في المغرب الذى أثار الرعب في قلوب جنود الاحتلال الفرنسي وكيف غزا المارشال بيتان Petain قرى الريف ودمرها بقنابل الطائرات مما اضطر الأمير عبد الكريم الخطابي إلى التسليم لإنقاذ مواطنيه من قصف الطائرات والمدفعية التي كانت تقصف بوحشية قرى الريف.

ونفت فرنسا الأمير عبد الكريم الخطابي إلى جزر المحيط الهندي، ولكنه تمكن من الفرار من سجانيه الفرنسيين عام ١٩٤٧ بينما كانت السفينة التي تنقله إلى منفى جديد بفرنسا تمر عبر قناة السويس. ولجأ إلى مصر حيث أقام فيها عزيزاً مكرماً مواصلاً جهاده من أجل استقلال المغرب وغيرها من الأقطار العربية، بشمال أفريقيا إلى أن توفي في القاهرة منذ سنوات قليلة مضت. وقد تميز عبد الكريم الخطابي وأفراد أسرته وكذلك زملاؤه في الجهاد الذين لجأوا إلى مصر أيضا بالصمت والتواضع وبشاشة النفس.

وفي الواقع أن هذا الكتاب، رغم الإيجاز الشديد الذى تتسم به فصونه العشرة فى تناول عشر جماعات بشرية فى مختلف أرجاء العالم، فإنه يقدم معلومات عن هذه الشعوب التى تعيش حياة بسيطة ترتبط بأوليات الحياة التى عاشها الإنسان فى عصور ماضية قديمة فى عمر الإنسان المعاصر. ولكن ما يثير تعجبنا حقا.. هو لماذا أضاف فورنو سكان الريف والطوارق إلى هذه الشعوب البدائية وبخاصة أن النظم التى تسود مجتمع الطوارق ومجتمع الريف، وخصوصا بعد دخولهم الإسلام، هى نظم اجتماعية متطورة ومتقدمة لا يمكن إدراجها مع عادات وطقوس المجتمعات البدائية.

وعلى الرغم من احتفاظ الطوارق والريف بعادات وموروثات ثقافية قديمة إلا أنهم يتميزون بنضج اجتماعى وتقدم ثقافى، بمفهوم الثقافة كسلوك حضارى.

ولا أجد مبررا لفورنو فى ذلك غير أنه أراد أن يشتمل كتابه على الجماعات البشرية التي ما زالت متمسكة بتقاليدها وأعرافها منذ آلاف السنين فى تواصل ثقافى حى.

كما يؤخذ على الكتاب والكاتب أيضا أنه لم يشر إلى أهم مميزات هذه المجموعات البشرية التي تناولها من إبداعات فنية

تشكيلية ولو بالإشارة السريعة إلى فنونهم التشكيلية والتطبيقية التى تعطى تصورا عن رؤيتهم الفنية لواقع ما يحوطهم.

وهذا الكتاب رغم ما يؤخذ عليه من انتقادات علمية إلا أنه فى الواقع يقدم معلومات كثيرة ورؤية شمولية لحياة عشر جماعات بشرية مختلفة الطباع والعادات، وينتشرون فى مختلف أرجاء الكرة الأرضية..

كما يثير الكاتب والكتاب فى نفس الوقت تساؤلات حول مستقبل الإنسان فى أرجاء أخرى لم يتناولها الكاتب فى كتابه هذا.. وهل ما زالت توجد جماعات أخرى فى بعض المناطق الجبلية أو في جوف الصحراء لم يصل إليها الإنسان المعاصر بعد إمكاناته التكنولوجية المعقدة..؟

ثم سؤال أخير.. ماهى الحياة السعيدة؟ هل هى حياة البساطة الطبيعية مع قسوة ظروفها؟ أم رفاهية الحياة المدنية بتعقداتها التكنولوجية؟.. إنه سؤال بلا إجابة.

هوامش الفصل الثانى

(*) Frederick Karl Errington, Karavar, Masks and Power in a Melanesian Ritual, Cornell University Ithaca and London, 1974 pp.260.

Rupert Furneaux, Primitive Peoples, David & Charles, Newton Abbot London 1975.pp.176.

1. Robert Brown, The Great Dionysiak Myth, 2Vols., London. 1877-1878.
2. Dorson, R.M., Peasant Customs and Savage Myths, Selections from the British Folklorists, Routledge A Kegan Paul, London 1968.
3. Taylor, E.B, Researches into the Early History of Mankind, London 1865.
4. Frazer, James, George, The Golden Bough, 2 Vols. London 1890 (2nd ed.) 3. Vols 1900, (3rd ed) 12 Vols., London 1907-1915.

Quest'ons on the Customs, Beliefs and Languages of Savages, Cambridge, 1907.

(٤) انظر ، فريزر، الغصن اذهبى ، دراسة فى السحر والدين ، ترجم بإشراف الدكتور أحمد أبو زيد ، الجزء الأول ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١ .

(٦) أرنست كاسيرر ، الدولة والأسطورة ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، مراجعة أحمد خاكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

7. Raymond Firth, Man and Culture, An Evalaution of the Work of Bronislaw Malinowski, Routledge & Kegan Paul 1957. Malinowski, B., A Scientific Theory of Culture and other Essays, Glaxy Book, 1960.
8. Malinowski, B., Argonauts of the Western Pacific, (2nd ed). 1932.

(٩) صمويل نوح كريمر ، أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

(١٠) الكزاندر هجرتى كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدى صالح ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٤١٦-٤٣٤ .

وانظر أيضا : الدكتور عبد الحميد يونس، الفولكلور والميثولوجيا، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل ١٩٧٢ الكويت، ص١٥-٥٤.
11. Lévi-Strauss, Claude, Structural Anthropology, Basic Books, Inc; New York, 1963.
12. Lévi-Strauss, C., Tristes Tropiques Translated from the French by john and Doreen Weightman, Atheneum, New York, 1975.
13. Lévi-Strauss, The Savage Mind, The University of Chicago press, 1966.
(١٤) انظر دراستنا، من أساطير الخلق، مجلة عالم الفكر، المجلد الثانى، العدد الأول، ابريل ١٩٧١، الكويت ص ٢٣٥-٢٥٤.
دراستنا النقدية لكتاب الفن الأفريقي، النحت، مجلة عالم الفكر، المجلد الثانى، العدد الثالث، اكتوبر ١٩٧١، الكويت ص ٢٦١-٢٧٢.
15. Rupert Furneaux, Primitive Peoples, op.cit.
(١٦) انظر الدكتور على المنتصر الكتانى، رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الثانى، ص ٧٧٧، مؤسسة الرسالة.
17. Pierre Meauzé, African Art, Sculpture, Weidenfeld & Nicolson, London, 1968.
(١٨) انظر، دنيس بولم، الحضارات الأفريقية، ترجمة على شاهين، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٧٤ ص ٩٦ وما بعدها.
(١٩) انظر، دكتور محمد عبده محجوب، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية، (منهج وتطبيق)، وكالة المطبوعات، الكويت، ص ١٥٢.
(٢٠) راجع دراستنا، من أساطير الخلق، (سبق الإشارة إليها).
(٢١) دنيس بولم، الحضارات الأفريقية..
(٢٢) انظر، توماس بلفينش، عصر الأساطير، ترجمة رشدى السيسى، مراجعة محمد صقر خفاجة، الفصل السابع عشر، الجزيرة الذهبية ميديا، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦، ص١٩١-٢٠٢.
23. Malinowsk B. Argonauts of the Western Pacific, op.cit.
(٢٤) من عاداتهم أن الرجل لابد أن يكون كريما، فالإنسان الذى يأكل طعامه سرا وفى عزلة عن الآخرين هو إنسان غير خير، كما أن من لايفى بوعده فهو إنسان حقير.

الفصل الثالث

مفهوم الزمن
بين الأساطير والمأثورات الشعبية

ما الزمن.. إذا حاولنا الإجابة عن هذا السؤال التقليدى - الذى لم يطرحه تصور الإنسان العادى بقدر ما طرحه الفكر الفلسفى - سنجد أن إجابتنا عن هذا السؤال لا بد أن تتجه أولا إلى البحث عن مدى إدراك الإنسان «للزمن» خلال «حالات» الحياة المتتابعة.

كما أننا إذا حاولنا استخلاص الإجابة من التصور الشائع فى الفكر الإنسانى سنجد أن مفهوم الزمن يرتبط بمفهوم ا«الحياة» على الأرض. ومفهوم «الحياة» يرتبط بمفهوم «الوجود»، ومفهوم الوجود يرتبط بمفهوم «الفعل»، ومفهوم «الفعل» أو

الحدث يلتقى مع مفهوم «الإرادة» الذى يلتقى أيضا بمفهوم «الحرية» الذى يتقابل مع مفهوم «الجبر»، ويرتبط فى نفس الوقت بمفهوم «الاختيار»

وهكذا سنجد أنفسنا فى دائرة التساؤلات والشروح والتفاسير تحاول أن تحدد تعريفا منطقيا عن «الزمن» هل هو زمن الإنسان أم زمن الكون.. ؟ أم هل هو زمن الجماعة المرتبطة بمكان أو المتناسلة فى «جنس» أم زمن «الجماعة» «الإنسان» دون تحييز فى «مكان» أو تنميط فى «عرق» باعتبار أن «الإنسان» «طراز» خاص متميز عن غيره من الكائنات؟

وإذا جعلنا هذه الأسئلة تدور فى حلقة واحدة، بدايتها هى نهايتها، وجدلها الهابط هو فى غاياته جدل صاعد- ومغاير إلي حد ما لمفهوم الجدل الهيلجي - ومثله فى ذلك مثل وجود الإنسان نفسه.. من تراب إلى تراب، ومن أزل بلا بداية إلى أبد بلا نهاية.. حيث لم يكن شمس ولا زمهرير، وحيث لم يكن ولن يكون إلا ما أراد ويريد رب العالمين.

وإذا نظرنا إلى الزمن من خلال التراث والمأثور(١) - وهما حصيلة المعرفة البشرية- اللذين أبدعهما الإنسان تسجيلاً لوقائع حياته، ووصفا لمواقفه إزاء تجربة الحياة، وتعبيرا عن

انفعالاته، سنجد أن الزمن.. هو «المقياس» الذى ابتدعه الإنسان فى تصور هندسى لمتغيرات حياته.. وهو العلاقة الرياضية التى استنبطها من واقع ما يحوطه فى عالم الأرض وعالم السماء.

فالزمن، هو الأيام فى تتابعها.. وهو الدنيا فى شموليتها للكون والطبيعة والإنسان وكل الكائنات. سواء ما عرفه بحواسه وبخبرته العلمية التطبيقية، أو أدركه بفكره وعرف علله المنطقية، أو تصوره بخياله أو باطن وجوده بمشاعره..

ومن ملاحظات التغيرات المتكررة والمنتظمة فى السماء ذات البروج، والتغيرات الحادثة فى الطبيعة المتزامنة مع هذه التغيرات أوجد الإنسان علاقة بين عالم السماء بأجرامه وسحبه وأمطاره، وعالم الأرض بنمائه، وبين حياته هو من ميلاد وموت.

وارتبط مفهوم الزمن فى تصور الإنسان منذ مراحل الحياة الإنسانية الأولى بعالم المتغيرات الذى يحوطه ويعايشه. فكل ما حوله فى تغير مستمر، عالم السماء بكل ما فيه من كواكب وقمر وشمس تبزغ وتأفل. والرياح والسحب والبرق والرعد والأمطار فى دورة حياة متكررة، البحار فى حالة مد وجزر متتابعة، والأنهار تفيض وتغيض.. والبذرة تنمو لتصير نبتة ثم بذرة من جديد.. كل يبدو ليختفى، ثم يبدو من جديد..

وتوقف الإنسان ليتأمل ذاته ومتغيراتها من ميلاد وكهولة وشيخوخة وموت- إزاء عالم الموضوع المتغير فى نظام.

ومنذ لحظة وجود الإنسان على الأرض مع لحظة السقوط والخروج من الجنة، كما تصورها الإنسان بفكره وسجلتها الكتب السماوية(٢)، ما زال الإنسان في حيرة من تقييم وجوده الآنى ودهشته إزاء المتغيرات التى تحوطه وتشمل كيانه. وسعى الإنسان إلى محاولة معرفة سر هذا التغير، وعلل هذا النظام الذى تخضع له كل الكائنات التى عرفها وأدركها، وتلك التى لم يعرفها وافترض وجودها.

وفي محاولة الإنسان المستمرة للكشف عن «المجهول» والقوى التى اهتدى إليها بحدسه الفطرى كعلة لهذا التغير، ثارت فى نفسه دوافع القلق من واقعه والخوف «من مصيره»، بعد الموت، فهو الكائن الوحيد الذى يدرك أنه يذهب ولا يعود.. فسعى إلى البحث عن سر «المصير»..

وظلت محاولة الإنسان منذ مراحل «التاريخ الإنسانى» الأولى هى محاولة مستمرة لتقريب المرئي ليكون ملموسا، و«العبث» بما تلمسه يداه ليعرفه «بنية» ما يدركه، وتحويل المحسوس ليكون «مفهوما»، وجعل الفرضى والتصورى ممكنا وكائنا.

البحث عن الخلود :

حاول الإنسان بتصوراته التجريدية واجتهاداته التجريبية أن يخرج من «نسق التغير» إلى «نسق الثبات» . ويحيا فى شباب دائم بلا شيخوخة [٣] ولا فناء - أو أن يكون ذهابه فى رحلة الموت، هو ذهاب لعودة من جديد، أو فى شكل آخر مغاير لطبيعته المتماثلة مع طبيعة الأرض التي تحتويه .

وتطلع الإنسان إلى الهروب من الشيخوخة (نسيج كيانه) ومن الموت (غاية وجوده)، بأمل أن يعثر على ما يهبه الخلود والشباب الدائم، ليخرج من حلقة التغير الحادث إلى حالة الثبات «المستمر» والهروب من مصير الفناء إلى حالة «البقاء».

فابتدع بفكره التلقائي ونظره الفطرى أساطير تدور أحداثها حول فكرة إمكانية البقاء بلا وهن . . فكانت رحلة «جلجامش» للقاء «أتونبشتيم» - الخالد - هى رحلة البحث عن سر الخلود وإكسير الشباب الدائم .

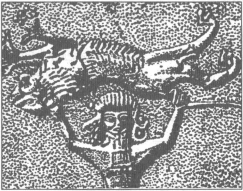
ومن «أتو - نبشتيم» عرف موضع النبات الذى ينبت فى أعماق المياه، فإذا أكل الناس منه (يعود الشيخ إلى صباه كالشباب) وروى الأسطورة بوقائعها الملحمية - كما دونها الأولون بأقلام الكتبة السومريين والبابليين على ألواح الطين قبل

(٤٠٠٠ عام)[٤]. كيف غاص «جلجامش» في أعماق اليم تساعده أحجار ثقيلة - ربطها في قدميه - على الغوص دون إبطاء. إلى أن وجد النبات فقطع الأحجار الثقيلة من قدميه وخرج من البحر إلى الشاطىء ومعه النبات الذى إذا أكل الناس منه يعود الشيخ إلى صباه كالشباب[٥].

وجلجامش فى صراعه الملحمى ضد الشيخوخة - الزمن القادم بالموت - ومحاولته الدرامية للهروب من الموت الذى قضى على صديقه «انجيدو» لايهدف من ذلك إلى منفعته الذاتية، بل هو يغالب الحياة من أجل أبناء مدينته «أوروك». فحينما حصل على النبات الذى يهب الشباب الدائم لم يأكله بل احتفظ به أولا ليقدمه إلى سكان «أوروك» وليأكل هو بعد ذلك فى آخر أيامه حتى يعود شبابه.. وفى رحلة عودته كما فى رحلات مغامراته قبل ذلك مع صديقه انجيدو وبخاصة فى رحلة مغامراتهما إلى غابة الأرز نلحظ ارتباط الزمن بالمسافات، فقدرة كل منهما تفوق قدرة غيرهما من الناس.

فتروى بعض نصوص الملحمة أنه :

(بعد سفر عشرين ساعة مضاعفة تبلغا بقليل من الزاد، وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة وقفا ليمضيا الليل).



نحت بارز يصور شجاعة جلجامش

ثم انطلقا سائرين (خمسين) ساعة مضاعفة أثناء النهار.
وقطعا مدى سفر شهر ونصف الشهر فى ثلاثة الشهر.
وحفرا بئراً وتقربا إلى الإله «شمش»[٦].

نفس المعدل من الزمن والمسافة (عشرون وثلاثون ساعة مضاعفة) نلحظه فى رحلة العودة مع «أور - شنابى» الملاح الذى سبق أن أوصله إلى - أتو نبشتيم الخالد- وبعد أن حصل على النبات العجيب :

«ثم قال : يا أور - شنابى - إن هذا النبات عجيب
يستطيع المرء أن يستعيد به نشاط الحياة
لأحملنه معى إلى «أوروك» ذات الأسوار
وأشترك مع (الناس) ليأكلوا منه

وسيكون اسمه : «يعود الشيخ إلى صباه كالشباب» وأنا سآكله (فى آخر أيامى) حتى يعود شبابى.

ثم سارا وبعد أن قطعا عشرين ساعة مضاعفةٍ تبلغا بلقمة من الزاد، وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا ليبيتا الليل

وأبصر جلجامش بئرا باردة الماء»[٧]
نَوَرَدَ (نزل) فيها ليغتسل فى مائها
فشمت الحية شذى (نفس) النبات

فتسللت واختطفت النبات

ثم نزعت عنها غلاف جلدها

وعندئذ جلس جلجامش وأخذ يبكى

حتى جرت دموعه على وجنتيه

وكلم «أور - شنابى» الملاح قائلا :

«من أجل من يا» أور - شنابى «كلت يداى..؟»(٨).

وبتأثير ذلك النبات السحرى استطاعت الحية أن تجدد شبابها بنزع جلدها كل عام.

وتتضمن الحكايات الخرافية لدى بعض الشعوب تصويراً للحية بأنها حارسة الكنز أو التى تحمل فى فمها الجوهرة النادرة. كما ترمز أيضا بقدرتها على إنهاء حياة الإنسان كرمز للشر الخفى.. واتخاذ الموقف الدرامى (انتحار كليوباترا) كناية عن ذلك.

كما كان يقال إن سحر جمال وحيوية كليوباترا كان يرجع إلى أنها كانت تشرب النبيذ المذاب فيه حبات اللؤلؤ، وبذلك حافظت كليوباترا على حيوية شبابها.

كما افترض بعض الباحثين أن (زهرة الخلود) The Flower of Immortality التى غاص جلجامش لاقتطافها من أعماق

اليم هى محارة اللؤلؤ.

كما اتخذت الأفاعي رمزا للحماية من المرض والشيخوخة والموت في البحرين - قديما- كانت توضع أفعي في إناء من فخار وتدفن تحت مدخل البيت، وأحيانا يوضع مع الحية لؤلؤ لتحمى سكان البيت من المرض والموت[٩].

وتروى حكايات لبعض الشعوب البدائية، وبخاصة في أفريقيا، أن هبة الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بسيطة تتمثل في تغيير الجلد بانتظام في فترات ثابتة كان يملكها الإنسان ولكنها تحولت عنه إلى الكائنات الدنيئة نتيجة حدث غير سعيد، فاكتسبتها نتيجة ذلك الحيات وسرطان النهر والسحالي والخنافس، وأن الجنس البشرى كان يستحوذ بحق في وقت ما على تلك الهبة ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز.

وتضيف رواية أخرى عن أهالي جزيرة «نياس» أن الحيات أكلت السرطان النهرى الذى يغير جلده ولا يموت، لهذا فإن الحيات لا تموت كذلك، بل تغير جلدها[١٠].

والخلود والشباب الدائم كانا دائما مطمع الإنسان، ونظر الإنسان للشيخوخة والموت على أنها مأساة الإنسان، وهذا ما

ظهر بشكل واضح في الأساطير الإغريقية، باعتبار أن وجود الإنسان منذ البداية هو وجود مأساوي، وسوف نعرض لذلك فيما بعد.

رحلة الموت:

هذا الموقف نجده بشكل مغاير في مصر القديمة، فالإنسان المصرى لا يهرب من الموت أو يرفضه، ولا يوجد صراع بين الإنسان والقدر الذى فرضته عليه الآلهة. والإنسان فى مصر القديمة محب لآلهته ومحب للحياة. لذا كانت فنونه المعمارية وتصاويره الحائطية فى المعابد والمقابر تعبيرا عن هذا التوافق بين الإنسان وآلهته. فآلهته دائما حانية عليه، ترسل له الشمس والدفء والنماء، وماء النيل يأتي بانتظام لا تبخل به إيزيس أو يحجبه أوزوريس أو يحرضان حابى (إله النيل) على منعه عن شعب مصر. وحورس يرعى الأرض والشعب، بل هو الذى يحمى أبناء النيل من غضب «ست» الذى يأتى بالتيفون.. ورع وآمون وآتون ثلاثى آخر رمزه قرص الشمس وأشعتها لم يخذلوه فى يوم من الأيام.

ورحلة الموت عند المصريين هى «رحلة تمجيد فى الأفق» ولا يجىء «لفظ الموت فى نصوص الأهرام إلا فى صيغة سلبية، أو

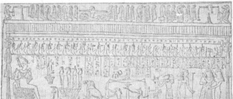
عندما يطبق على عدو. وإنا نسمع مرارا وتكرارا أن «الموتى يعيشون» إنها حياة لحياة. وما الموت إلا استمرار لحالة التغير المتكرر فى كل ما يحوط الإنسان.

وفى نصوص الأهرام نجد عبارة «إنك لم ترحل ميتا إنك رحلت حيا». وكذلك نطالع «أيها الشخص الفضى بين النجوم التى لا تفنى، إنك لا تفنى إلى الأبد»(١١).

وحاول الإنسان المصرى أن يتغلب على فناء الجسد بتحنيطه وحفظه، ليحتفظ الجسد ببنيته المكونة من الـ«كا» والـ«با» وال «خو» إلى يوم الحساب.. (١٢).

والموت هو حالة تغير فى الحياة وليس انتهاء حياة، فهو رحلة الوصول إلى البر أو «الرسو» وهو أيضا الحياة الأبدية بلا تغيرات. حياة بلا جور كل ما فيها عدل وخير «إنك تصعد، أنك ترى حاتحور، إن السوء قد طرد، إن الجور قد اكتسح، قام بذلك الذين يزنون بالموازين يوم الحساب»(١٣).

فلا خوف بل طمأنينة، وبذلك ينتقل الإنسان من حالة إلى حالة أخرى فى حياة متواصلة (إنك لا ترحل ميتا، إنك ترحل حيا) كما تقول نصوص الأهرام. فالزمن زمن متصل، المستقبل هو امتداد للحاضر بلا تقطعات.. ورحلة الإنسان من الشرق



محاكمة الميت، عن بردية جنائزية لإحدى السيدات (برلين ٣٠٣٤)، من عهد متأخر.٢٠

إلى الغرب حيث المقابر.. هى نفسها رحلة الشمس من الشرق إلى الغرب، فى مركب الشمس التى تعبر النيل حيث الرسو لمواصلة حياة متجددة دائما.

ومن الشمس تعلم الإنسان المصرى حساب الأيام والسنين.. وقسم اليوم إلى ١٢ ساعة نهار، ١٢ ساعة ليل.. وقاس حساب الساعات بالمزولة وبظل المسلة على الأرض وباستخدام آنية فخار (Clepsydra) مدرجة جوانبها بخطوط، ويتسرب منها الماء فى هدوء من خلال فتحة صغيرة، ومعدل تسرب الماء هو مقياس الساعات وبخاصة فى الليل.

ومن حساب الأيام جعل العام ٣٦٠ يوما، والخمسة أيام أو السبت فى السنوات الكبيسة أيام أعياد، وجعل بداية العام هو ظهور كوكب الشعرى (Sirius) فى أبهى لمعانه وهو رمز الالهة إيزيس أيضا.

وفصل الفيضان ((Akhit) هو الفصل الأول من السنة، ثم موسم الحرث والبذر وموسم الذهاب (Perit) حينما تجف المياه وتذهب ويبدأ الحصاد وهو موسم (Shemon) فالسنة ثلاثة أقسام كل قسم ٤ شهور تبدأ مع الفيضان في أغسطس.. ووحدة القياس هى عشرة أيام واليوم العاشر عطلة من العمل(١٤). ومن

هذا الحساب الدقيق اشتقت نظم التقويم فيما بعد على مختلف العصور إلى تقويمنا المعاصر (١٥).. أما التقويم العربى فكان يبدأ من غروب الشمس إلى غروبها كساعات اليوم.

والشهر يحسب تبعا لدورة القمر من هلال إلي محاق.. (١٦).

زمن الصراع مع القدر:

والزمن فى الأساطير اليونانية زمنان، زمن حياة الإنسان على الأرض، وهو زمن الصراع مع القدر، وهو حاضر مليء بالمعاناة.. وزمن آخر هو زمن الموتى.. حيث يكون المستقبل فى زمن الأحياء هو حاضر فى (عالم الموتى).. وحياة الإنسان مقدرة عليه تقديراً.. والإنسان نفسه هو موضوع الصراع بين الآلهة ما بين معاون له وبين معاد له.. ووجود الإنسان، هو زمنه الحاضر ليحقق ما يريد وفق إرادة الآلهة التي انتخبته .. وهو أيضا زمنه الذى يحاول خلاله أن يخرج فيه من إرادة الآلهة التى حددت ما يعانيه فى حياته.

وعالم الأموات.. حيث أرواح الأسلاف تشرف على هذا الصراع وتعلمه دون أن تتدخل فيه.. والعارفون والكهان يمكنهم التنبؤ بما سيحدث للإنسان فى حياته.. فحياته هى

تطبيق لما هو مفروض من قبل فى عالم الآلهة الذى تدركه أحيانا أرواح الموتى..

والأساطير اليونانية كما تسجلها الأعمال الأدبية القديمة، تحمل فى مضمونها وموضوعاتها فكرة الصراع، الصراع فى عالم الآلهة ، وصراع الإنسان مع الإنسان فى عالم الإنسان، وصراع عالم الإنسان مع عالم الآلهة.. وهو صراع درامى يعبر عن أن حياة الإنسان محددة بأفعاله المقدرة من قبل. وهو قدر موجود فى زمن سابق على زمن الإنسان المرتبط بوجوده الواقعى بين الميلاد والموت.

ومن خلال العرافين عرف الإنسان قدره، فلذلك يحاول أن يخرج عنه ويهرب منه فى غربة ملحمية ويومية «وكان الأساس الأسطورى للفن الإغريقى بصفة عامة، هو إنسانى وتاريخى فى جوهره، إلى درجة أنه كان يبرز ماهو فعلا موجود فى الحياة»(١٧).

وتتضمن الإلياذة والأوديسة، اللتان نظمهما هوميروس حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، تصويرا رائعا لما افترضه الإنسان الاغريقى قديما من تصورات لعالم الأجرام السماوية والظاهرات الطبيعية المختلفة، ووصفا للعادات والتقاليد

والمعتقدات والطقوس التى كانت تمارس فى تلك العصور التى تناولتها الملاحم الأدبية، بما فيها من صيغ أدبية شعبية ومأثورات ثقافية، ما زالت مصدرا مباشرا من مصادر التعرف على مقومات الثقافة الإنسانية، فى حضارة من أقدم الحضارات التى أعطت المعرفة البشرية مجالات للبحث ورؤى فكرية لعالم الإنسان والطبيعة من تصورات ميتافيزيقية.

وتتميز الأساطير الإغريقية بأنها وصلتنا فى صيغ أدبية، وأثبتت بالتدوين وتلقت القدر من التقنين الذى قدر لها فى ذلك الأوان مجموعة من الأساطير الإغريقية هى التى تضمنتها الأشعار الهومرية التى كان موضوعها الرئيسى أعمال الإنسان الفانى ومتاعبه [١٨].

وإذا استطردنا فى موضوع الموت «باعتباره هو نقطة التماس بين زمن الإنسان النسبى فى التقويم الأرضي.. وبين زمن الكون فى الأبد نجد أيضا مقولة البقاء بعد الموت فى ازدواجية بنية الإنسان بين الجسد والروح .. فالموت هو موت للجسد «لاتحنيط الجسد» والحياة هى حياة أرواح الموتى. وفى منازل الأموات يستطيع المرء أن يتحدث مع أرواح الموتى ووجودهم يكون كالحلم.. ويمكن للإنسان أن يتحدث معها، ولكن لا يلمسها

«فيقول «أوديسيوس» وتاقت نفسي إلى أن تمسك بروح أمي الميتة واحتضنها، فوثبت نحوها ثلاث مرات، وأمرني قلبي بأن أمسكها ثلاث مرات، وأفلتت من ذراعي أشبه بالشبح أو الحلم. فزاد الألم حدة في قلبي.

ولما قلت لها، كيف هذا يا أماه..؟ ما أنت إذن سوى شبح أرسلته ملكة الموت إلي..! أجابتني أمي.. :«هذا شأن الأموات يا ولدي، فلا تبقى لهم لحومهم وعظامهم التي تلتهمها قوة النار. وأما أرواحهم فهي كالأحلام تطير هنا وهناك»(١٩).

وفي أنيادة فرجيل (٧٠-١٩ق.م) التي تعتبر المدخل والممر بين عصر الوثنية والعصور المسيحية يدور حوار مماثل في مساكن الموتى بين أينياس وروح أبيه انخيس، ويطلع انخيس ولده اينياس على أمور قادمة (وأضاء روحه برغبة إلى المجد ثم أراه الحروب التي سيشتبك بها، وكيف يجب أن يكابدها أو أن يتفادى الشرور القادمة إذا أمكنه ذلك)(٢٠). وحاول اينياس أن يحتضن والده ويعانقه، ولكن ذراعيه لم تحتضنا سوى خيال غير ذي جسد(٢١).

وفي رسالة الغفران للمعري، والجحيم لدانتي نجد مواقف مماثلة.. كما يتجدد هذا الموقف نفسه في أعمال أدبية عديدة.

فنجد على سبيل المثال ، حضور الروح إلى العالم الأرضى، فى «هاملت» ، حينما تطالبه روح أبيه بأن يثأر لمقتله .

وقدرة الأرواح على معرفة المستقبل يجعل المستقبل (حدثا حاضرا) فى عالم الأموات يرونه بقدرة خاصة .

فالمستقبل بالنسبة للأموات (موجود بالفعل) فى زمان غير زمان الأحياء ووجوده هو تزامن للحاضر . واستباق أرواح الموتى للأحداث ، هو بمثابة النبوءة للعرافين والكهنة ، فالزمن فى النبوءة «خارج» إدراك الإنسان ، وهو اتصال الحاضر بالمستقبل واستباق آنى للأحداث بالنسبة للمتنبىء الذى يملك القدرة على الرؤية المستقبلية . . لما هو كائن وإن لم يتحقق بعد فى الزمن الإنسانى . .

والزمن كحدث يرتبط بالمكان ، والزمان والمكان يتحدان في (الفعل) فينشأ الزمان فى المكان ، ويعلو الحدث بالمكان إلى الزمان .

وعلاقة المكان بالزمان ، والزمان بالمكان ، هو موضوع آخر عالجه الفكر الفلسفى منذ القدم [٢٢] .

والحديث عن الفكر الملحمى والزمن فى الأدب الإغريقى ، لابد وأن يتبعه بشكل ما الإشارة إلى قصيدتى «الأعمال والأيام»

وتيوجونيا "Theongonia"(٢٣) وهما من الشعر التعليمي وتنسبان إلى هزيود Hesiod (القرن الثامن ق.م). القصيدة الأولى (الأعمال والأيام) تنقسم إلى ثلاثة أقسام- الأول يرتبط بالصراع الذى قام بين هزيود وأخيه، وبيان ما ينبغي أن تكون عليه الحياة الاجتماعية والأخلاق والعدل.

والقسم الثانى يتضمن وصفا لأعمال الحقل من بداية الخريف بأعمال الحرث وتنتهي بعد عام فى الخريف التالى بأعمال الحصاد. أما القسم الثالث فهو عبارة عن تقويم فلكى قسم فيه الشاعر أيام الشهر وفقا لعقائد دينية كانت منتشرة فى عصره إلى قسمين - أيام سعادة تنجح فيها المشروعات وتؤتى الأعمال أكلها، وأيام نحس يخفق فيها كل ما يقوم به الإنسان أو بعضه.

أما فى «التيوجونيا» فهو يعرض لتاريخ الآلهة ويبين أنسابهم (Theos-Gonos) وأصولهم وشعورهم ويترجم لكل منهم، فيفصل وظائفه وأعماله وتاريخ حياته.. ويتناول بداية الوجود حيث كان العماء (Chaos) ولا شيء غير العماء قبل خلق السماء والأرض والشمس وسائر أجرام السماء(٢٤).

والواقع أن الدارس لأساطير الشعوب سيجد متماثلات فى

بعض عناصرها سواء ما يرتبط بفكرة الخلق أو آلهة مظاهر الكون، كما تتداخل عناصر من أساطير الشرق في التراث الإغريقي، وهذا يرجع إلي أن معظم الأساطير اليونانية دونت في حقبة متأخرة إلى حد ما (القرن التاسع قبل الميلاد)، وكانت الصلات القديمة بين الشرق والغرب تسبق ذلك بفعل الهجرات البشرية ورحلات التجارة.

كما حملت حملات الغزو في العصر الهليستيني مع جحافل جيوش الإسكندر (٣٥٦-٣٢٣ق.م) عناصر ثقافية إغريقية إلى دول الشرق في مصر وفارس والهند. كما عادت بعناصر من ثقافات هذه الشعوب.

وإذا تأملنا فكرة الزمن في الأساطير الهندية بالنسبة لموضوع الزمن، سنجد أنه لا انفصام بين ما كان وما هو كائن، بل الزمن كما يرمز له بعجلة مكتملة الاستدارة من العجلات الاثنتى عشرة التي تحمل عربة الشمس في رحلتها المستمرة وتكون مكتملة فالنهاية هي البداية، كما أن العالم الأرضي متلاصق مع عالم السماء في تزاوج واتحاد، والعالم كله كيان واحد ينتمي إلى براهما روح الوجود.

وعالم الأرواح هو العالم الحقيقي، ورهبان (المونى)

المتمنطقون بالريح، المكتسون بالمآزر الصفراء لهم القدرة على الصعود بالروح دون الجسد لزيارة عالم الآلهة وممارسة النورانية(٢٥).

وفى نصوص الفيدا توصف الشمس بأنها حصان سماوى ورأس الحصان يرمز لشروق الشمس. ففى أشعار الريجفيدا (١-١٦٣ / ٦) نجد وصفا لذلك فى عبارة (لقد عرفتك بعقلى منذ أن كنت بعيدا أنت الطائر الذى يطير عاليا من أسفل السماء، لقد رأيت رأسا بأجنحة تكدح فى هدوء)

وفى نصوص الفيدا نجد الشمس توصف أيضا بأنها وجه الآلهة، وأن الرياح تحجب عين الشمس برذاذ المطر (فيدا ٥٩ / ٢٥) هذا التصور نفسه نجده فى الأساطير اليونانية وفى وصف هزيود للشمس..(٢٦).

والأساطير الفارسية حينما تتناول موضوع خلق العالم نلحظ أن فكرة الصراع تعتمد على التنازع الموجود بين الخير والشر أو بين النور والظلام، وبين الحياة واللاحياة، كما نجد عناصر من الأساطير الهندية وبخاصة ما يرتبط بالأرض (الأم) تلك المقولة الشائعة في أساطير الشرق بصفة عامة.

وفى العقيدة الزرادشتية نجد الزمن متصلا بالنسبة لأرواح

الموتى الطيبين، إذ تسكن إلى الأبد مع الآلهة الروحانيين فى النعيم كله إلى الأبد حيث النور اللانهائي، أما الأرواح الشريرة فتمكث فى الجحيم حيث الكلمات والأفكار الشريرة[٢٧].

وتتضمن الشاهنامة للفردوسي (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) - ٤١١هـ/ ١٠٢٠م) قصة خلق العالم والسماء والأرض ونظام السماء والنجوم المتحكمة فى المصائر ثم خلق الإنسان.. [٢٨].

والرمز فى الأساطير هو محاولة إنسانية لتقريب الغيبى على أسس من المنطق والإدراك الحسى.

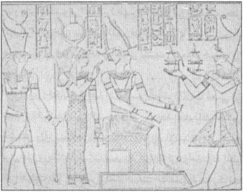
زمن الموتى:

ففى أساطير الهند كما فى أساطير الإغريق نلحظ وجود زمنين، زمن «أرواح الموتى» وزمن الأحياء.. وزمن «أرواح الموتى» هو زمن سابق على زمن الأحياء.. «وأحداث الحياة» لها وجود سابق فى زمن أرواح الموتى. فهى مقدرة ومسبقة بفعل قوى «العالم الإلهى» تدركها «الأرواح» وتنبىء عنها لمن تريد من بنى الإنسان.. وأحداث الإنسان لها وجود «حاضر» خارج «زمن الإنسان». وهى مستقبل سيكون فى زمن الأحياء.. فهى حاضر ومستقبل، حاضر فى عالم الأرواح ومستقبل الحدث الإنسانى - فوجودها هو وجود (بلا تشيؤ) فى عالم الأرواح حيث الأرواح

نفسها كالأشباح أو الحلم.. وازدواجية الكيان الإنساني (روح وجسد) هي نفسها ازدواجية الزمن «قبلى» و«بعدى» - الحدث كما هو موجود ومفروض ومقدر، ووقوع «الحدث» في عالم الإنسان هو أمر محدد من قبل.

كما أن لبعض البشر القدرة على إدراك المستقبل، وذلك باجتهادات خاصة وممارسات لا يقدر عليها غير هؤلاء - من الصفوة الممتازة من البشر - الذين لهم القدرة على (خلاص) الروح من أسر الجسد.. وهو خلاص يعود إلى فعل إرادى إنساني يتيح للروح الخلاص، وموهبة توهب من عالم السماء، وتنتمي إلى «قوة» خاصة يختص بها بعض الناس وهم قلة نادرة.. فيكون في الإمكان استباق الأحداث ومعرفة ما سيكون في عالم الأرض قبل حدوثه.. فزمن الأرض هو انعكاس للزمن المطلق حيث الحاضر هو مستقبل وماض في آن. وزمن الإنسان هو زمن لاحق لزمن السماء حيث النور الإلهي.. وقد ظل هذا التصور في المعتقدات الشعبية شائعاً إلى الآن بأشكال مختلفة، وتحمل حكايات الشعوب عناصر كثيرة منه.

أما بالنسبة للأساطير والحكايات الخرافية الصينية، يلاحظ عدم وجود قصة حقيقية عن الخلق. إذ نلحظ أن الفكر



الملك سيتى الأول يقدم القرابين إلى أوزوريس وتقف خلف إيزيس وحورس

الأسطورى الصينى - وحكاياته يهتم أكثر ما يهتم، بعلاقة الإنسان بالإنسان. وفى توافق الإنسان مع الكون المادى، مع اهتمام نسبى قليل بالأصول الكونية للإنسان. ويذهب «دبرلاين» إلى أن الحكايات التعليلية قلما تظهر عند الصينيين.

وقد اعتقد الصينيون قديما فى غير شمس واحدة، بل عشر شموس تظهر كل منها على التعاقب فى كل يوم من أيام الأسبوع الصينى ذى الأيام العشرة- مثل التقسيم المصرى القديم- وقد وقع فى يوم ما، فى زمن ما، يحدد عادة فى عهد «ياو» أن الشموس العشرة ظهرت كلها فى أعقاب بعض الاضطرابات حتى بدا كأن الدنيا قد أوشكت أن تحترق، إلى أن عمد «يى» أو «هويي» حامل القوس المشهور فرماها جميعاً إلا واحدة(٢٩).

وتروى الحكاية الخرافية أن الشمس العاشرة كانت تحتمى فى شجرة الفاكهة تلك الشجرة التى لم تعد بعد ذلك تخشى الشمس وإنما تنمو فى غير عناء، وما زال الإنسان حتى اليوم يرى على وريقاتها حبات صغيرة من اللؤلؤ، وأما دودة المطر التى أفشت سر الشمس، فقد اقتفت الشمس أثرها وكانت تجففها كلما طلعت من باطن الأرض(٣٠).

ويلاحظ من حكايات وأساطير الصين أنها خليط من عناصر وأساطير الشعوب الشرقية الأخرى، كما نلحظ ذلك أيضا فى الأساطير اليابانية التى تجعلها أقرب إلى القصص الروائى منه إلى الملحمة(٣١).

من هذا العرض الموجز لفكرة الخلق والموت والبعث والخلود «موضوع الزمن»، فى بعض الأساطير القديمة لبعض الشعوب نتبين أنها كلها تحاول إيجاد علاقة منطقية وتصور ذهنى لزمن الإنسان مع زمن الكون.. وزمن الإنسان هو زمن وجوده المتزمن فى الزمن الكونى(٣٢).

وحينما يتقرب المرء من مجمعة الأساطير الفلكية - يشعر على الفور أنها قصص تفسيرية شارحة، فضوء الشمس يختلف أيما اختلاف عن ضوء القمر، والشمس تشرق فى النهار والقمر والنجوم تطلع بالليل، وأغلب النجوم ينتظم فى عناقيد نسميها الأبراج، وكل هذه الحقائق وكثير غيرها يثير السؤال، لماذا..؟ ولقد حاول الإنسان بطريقته المعتادة، أن يجيب على هذا السؤال، لا عن طريق البحث والاستقصاء العقلى، فهذه الأمور تتصل بمرحلة متقدمة من تطوره الروحى، بل حاول الإجابة عليه باختراع قصة جيدة، ومن هنا نشأت قصص كثيرة عن زواج

الشمس والقمر[٣٣].

وابتداع الإنسان «الكلمات» لتدل على «الأشياء» المدركة والحادثة، وقسم «الحدث» إلى ماض وحاضر ومستقبل، باعتبار أن الحاضر هو المتغير بين الماضي «الثابت» الذي يخرج عن قدرات الإنسان الآنية، باعتبار أنه تم بالفعل. والمستقبل الاحتمالى الذى يخرج أيضا عن دائرة الفعل الآنى للإنسان، باعتبار أن المستقبل فرض (ممكن الحدوث) ولم يحدث بعد. وربط الإنسان بين الأزل والأبد بوجوده هو - كما جعل العلاقة القائمة بين القبلى والبعدى، مرتبطة بمعرفته، فى نقطة تماس تجريدية.

رحلات الإنسان إلى عوالم أخرى:

ومن هنا كان نظر الإنسان من خلال تصوره الأسطوري وحكاياته الشعبية وخرافاته وتجريداته الذهنية وتصوراته الفكرية، هو محاولة للخروج من الجزئى المتغير إلى الكلى المطلق، حيث كان هبوطه من الكلى الثابت إلي الجزئى المتغير هو حالة من حالات وجوده الكلى ليصعد من جديد إلى عالم الخلود.

وحينما عبر الإنسان عن زمنه هو بين الهبوط والتطلع إلى

الخلود . . . ، ربط ذلك بواقع حيـــاته على الأرض . . واصطنع الإنسان حكايات كثيرة تتضمن صورا من الأحداث والمغامرات التي صاغها الإنسان بخياله ، تجمع في جزئياتها مزيجا من عالم الواقع مع عالم الخيال ، فافترض رحلات قام بها أشخاص إلى عالم السماء أو إلى عوالم غير العالم الأرضى ا لسطحى ، فمنهم من نزل إلي أعماق الأرض حيث عالم الجنيات ، أو غاص في أعماق اليم ، أو رحل إلى جزر مجهولة حيث مساكن الجنيات والكائنات المسخ . أو إلى منازل الأرواح ، أو حيث تقيم كائنات غيبية لها قدرات البشر ، وصفات غير بشرية وإن تمثلت في شكل بشر . منها ما يرتبط بعالم النور أو عالم الظلام ، عالم الخير وعالم الضرر .

وقد يحدث تزاوج بين الإنسان وكائنات من هذه العوالم فوق الواقعية ، حيث يمتزج الخيال بالوهم ، والتصور الذهنى بالحلم ، في رؤية تصويرية خارقة لوجود يفوق الوجود الإنسانى أو أدنى منه . وهى افتراضات تعبر عن محاولة الخروج من عالم «الزمان والمكان» الإنسانى إلى عالم يفوق عالم الإنسان - والزمن فيه يفوق حساب الأيام والسنين ، فيحقق الإنسان في لحظات غيابه أعمالا لا تتيسر له ولو أمضى في الزمان الإنسانى

أياما أو شهورا أو أعواما، فتكون اللحظة من عمر الزمان فى هذه الحالة تفوق فترات من زمن الإنسان، ويحقق الإنسان بمعاونة القوى الغيبية مالا يستطيع تحقيقه بالفعل الإرادى، بالنسبة إلى تقويم الإنسان.. وتكون اللحظة كطرف البصر، أو قبل أن يرتد طرف البصر، أو كالحلم الذى يمضى بأحداثه[٣٤].

«وقد زعم العرب أيضا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنسان. وأنهم يظهرون لهم ويكلمونهم، وقسم الجن إلى أنواع»..[٣٥].

كما تتضمن قصص العرب حكايات عن علاقات الجن والإنس، إذ يختطف الجان فتاة، وتغيب مدة من الزمان ثم تعود إلى أهلهاولكن تظل على صلة بمن اختطفها، وبينه وبينها أمارة إذا احتاجت إليه دعته بها[٣٦].

وتتعدد طرز الحكايات العربية وعناصر سعى أبطال الحكايات لتحقيق أشياء من خارج عالم الأرض، عالم الزمان والمكان[٣٧].

طقوس ومعتقدات:

نسب الإنسان بتصوراته الأسطورية قوى غيبية لكل ظاهرة من ظاهرات الكون. وأعطى لكل مظهر من مظاهر الطبيعة رمزاً

غيبيا سجله فى أساطيره، وصاغ حوله القصص والحكايات، وما زالت بعض الشعوب الفطرية تقدس بعض هذه الظواهر، كما حمل الموروث الثقافى للإنسان المعاصر عادات وتقاليد تمارس فى مناسبات معينة من السنة.. وطقوسا تؤدى فى أثناء حدوث تغير مفاجىء فى بعض الظواهر، من كسوف للشمس، أو خسوف للقمر، أو هبوب عواصف رعدية، أو حدوث جفاف، بتأخير فيضان الأنهار أو تأخر سقوط الأمطار.

وبين قبائل البربر فى شمال أفريقيا، ما زالت بعض البقايا الطقوسية من معتقداتهم القديمة تمارس للآن «كالنار التي تضرم فى الصيف عند بلوغ الشمس أبعد نقطة فى السماء وذلك يوم ٢٤ يونيو (حزيران) ويقوم الناس فى منطقة الريف الجبلية بالقفز فوق تلك النار»(٣٨).

كما تمارس مثل هذه العادات عند الشعوب السلافية وبين فلاحي أوروبا، وهذه الاحتفالات تدل على أن قداسة النار قديما ما زالت عناصر منها متوارثة، بشكل مغاير ومفهوم ووظيفتين مختلفتين لما كانت عليه من قبل منذ أن اقتبس برومثيوس (Promethius) النار المقدسة من الآلهة ونقلها من عالم السماوات إلى الأرض.

ويرى كيلي Walter K. Kelly أحد علماء الأساطير المقارن في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن هذه العادات الاحتفالية ترجع إلى الممارسات الطقوسية القديمة التي كانت تمارسها الشعوب الآرية. ودراستنا لهذه الاحتفالات الطقوسية هي مفتاح لفهم الأساطير الاغريقية والهندية(٣٩).

وبين قبائل السنسي (Sencis) في بيرون يطلقون سهاما مشتعلة في اتجاه الشمس عند الكسوف. ولكن الظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك لإشعال مصباحها من جديد بقدر ما كانوا يقصدون به طرد حيوان متوحش يعتقدون أن الشمس تصارعه، وعلى العكس من ذلك فإن بعض قبائل الهنود الحمر في أوريكو كانوا يدفنون في الأرض بعض قطع الخشب المشتعل وقت خسوف القمر لاعتقادهم أنه إذا انطفأ نور القمر فسوف تنطفيء كل نار على الأرض ما عدا النار التي أخفيت عن ناظريه(٤٠).

وإطلاق سهم اتجاه الشمس أشرنا إليه في الأساطير الصينية ولكن بمفهوم مغاير، إذ كانوا يعتقدون بوجود عشرة شموس تتصارع.

وكما احتفى الإنسان في تصوره الفطري بالشمس كمعبود

أكبر من الأجرام السماوية والأكثر نورانية احتفى بالقمر «وقد اعتقد الناس في الأزمنة القديمة أن الإنسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت إلى غير نهاية مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله»(٤١).

وتتصور قبائل البوشمان الإفريقية، خسوف القمر على أن القمر ينقلب على ظهره «أنه يرقد فارغا، إنه يقتل نفسه، إنه يحمل الناس الذين ماتوا»(٤٢).

وحاول الإنسان أن يصعد إلى القمر ليعرف سر الحياة عليه، وليكشف عن أسرار التغير الذى يصيبه، فصنع الأبراج التى قصرت عن أن تصل إليه، وانطلق بأجنحة الطير التى عجزت عن أن تحمله مسافات عليا كما تروى الأساطير الأفريقية(٤٣). والحكايات العربية.

وكلها مع غيرها من حكايات الشعوب تهدف إلى أن يخرج الإنسان من حيز الأرض، حيث الزمان المتغير، إلي الفضاء حيث الزمان بلا تغير.

والتشاؤم من كسوف الشمس وخسوف القمر يرتبط فى التصور الإنسانى ببداية انتهاء الوجود الإنسانى فليجأ إلى الله بالدعاء ليكشف الغمة.

وكان العرب فى الجاهلية يربطون بين ظواهر الطبيعة وبين أسباب وهمية لا تمت إليها بصلة.

فيوم توفي إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث كسوف للشمس فظنه الناس معجزة تحدث لهذه المناسبة، فقال صلى الله عليه وسلم.. (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته).

ونهى الإسلام عن إعطاء الظواهر الطبيعية أية قيمة غيبية، فسبحانه.. : ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾(٤٤) فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وهو الذى ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾(٤٥).

﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة* فاصبر صبراً جميلا * إنهم يرونه بعيدا* ونراه قريبا* يوم تكون السماء كالمهل* وتكون الجبال كالعهن﴾(٤٦).

و«اختلاف التقدير فى الأيام على النحو الذى تشير إليه بعض آيات القرآن الكريم يفهم إذا علمنا أن الزمان هو أمر

نسبى ، وهو كما نعلم يقدر بحركة الأفلاك فى مجموعتنا الشمسية ، أما خارج هذه المجموعة فليس زمانا بالمعنى الذى نفهمه نحن على الأرض» . .(٤٧) .

ولقد حدد الفكر الدينى بشكل مباشر من خلال الكتب السماوية ، جوانب وعلاقات فى المعرفة البشرية وإضافة معارف إلى الفكر الإنسانى . . تحدد موقف الإنسان تجاه الكون .

كما ساعدت جهود الاثنولوجيين والفلوكلوريين وعلماء الدراسات المقارنة للأساطير والحكايات الشعبية فى تفسير بعض أنماط السلوك الفطرى وعادات بعض الشعوب وبخاصة إزاء «قلق» الإنسان المستمر بسبب التغيرات الحادثة فى بعض الظواهر الطبيعية ، وقد كانت تمارس طقوسا لكف المطر أو الاستسقاء .

ويذكر لنا المؤرخ العربى المقريزى أن إحدى قبائل البدو فى حضرموت وهى قبيلة القمر يقومون بقطع غصن شجرة معينة فى الصحراء ويشعلون فيها النار ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل ، فيقل هطول المطر حتى تتوقف تماما ، مثلما تختفى المياه التى ترش على الخشب المتوهج(٤٩) .

كما يروى أيضا أن العرب «كانت إذا أبطأ المطر شدت

العشر- وهو خشب لم يقتدح الناس في أجود منه- والسلع وهما ضربان من النبت، في أذناب البقر وألهبوا فيه النار وشردوا البقر تفاؤلا بالبرق والمطر وفى ذلك يقول ا لشاعر:

أجاعل أنت بيقورا مضرمة

ذريعة لك بين الله والمطر

وفى الشعوب البدائية والافريقية تمارس (٥٠) طقوس وعادات مختلفة ترتبط بتغيرات الظواهر الطبيعية وقد تضمنتها الدراسات الاثنوجرافية والاثنولوجية والفلوكلورية(٥١) وتتعدد وتتنوع عناصر مروياتها الشفاهية من شعب إلى آخر. وتدور حول محورين أساسيين الخلق والفناء أو الميلاد والموت وما بينهما من حالات تغير في الزمان المرتبط بالمكان وفى علاقة السماء بالأرض. ودورة الحياة- حياة الكون وحياة الإنسان وربط الإنسان تصوره للزمن بواقع حياته. وقسم الزمن إلى أزمنة، زمن العالم، وزمن التقويم وزمنه هو.. ويصير لعالم الذوات L'intersubjectivité «زمنه الخاص وحدوده وأبعاده»(٥٢). أما زمن الإنسان فهو وجوده- وهو حالة بين ما كان وما سيكون، وهو الحاضر في أزمنة الفعل الكلي للوجود المطلق إذا جاز تقسيم الزمن إلى آنات بين ماض وحاضر ومستقبل.

أما قصة وجود الإنسان، التى توارثها خلال مروياته، الشفاهية وسجلها فى موروثاته الثقافية فهى أساس المحصلة التاريخية لمعارفه المتقطعة التى كونت معارفه.

وسواء كانت المعرفة الإنسانية معرفة متقطعة أم أن الثقافة الانسانية شيء مطلق «مثال» وكل الثقافات تحمل مكونات متماثلة نابعة من القوانين الكونية التى تحكم عمليات الإدراك، أم كان ذلك بالنسبة لأصحاب الفكرة القائلة بأن الثقافة «شيء» موضوعى، وطرز الثقافة تتغاير وتختلف لارتباطها بموضوع التجربة الإنسانية وتتنوع وتتعدد «طرز التجربة العملية» للإنسان. ففي الواقع أنه من الصعوبة بمكان وضع مقياس عام للظاهرات الثقافية، أو كما يقول مالينوفكسى: «أن القوانين التى تحكم العمليات الثقافية غامضة وعديمة الفائدة والدلالة» (٥٣) كما أن المعرفة التاريخية من وجهة نظر ليفى شتروس هى «معرفة مثل غيرها من المعارف وأنه لا يمكن أن توجد معرفة لما هو متصل، ولكن فقط لما هو متقطع» (٥٤).

وحينما نحاول من جانبنا التعرف على عملية «إدراك» الزمن لدى الإنسان من خلال موروثه ومأثوره الثقافى، فإننا فى الواقع نحاول معرفة تصورات الإنسان إزاء التغيرات الحادثة فى

المكان، وعلاقتها بالتغيرات المتتابعة خارج المكان فى عالم الأجرام، ومحاولة معرفة شكل العلاقة التى أنشأها الإنسان فى تقويم وتقييم أحداث حياته فى منظومة التاريخ البشرى، بما فى منظومة التاريخ من أساطير مؤرخة وتأريخات (تفسيرات) تاريخية غدت أسطورة حسب قول جان بيير فاى Jean Pierre Faye[٥٥].

هذه العلاقة.. «التى تنشأ من تتابع» الفعل الكونى والإنسانى، هى بنية الزمن الكونى والإنسانى فى آن. كما أن العلاقة بين الزمن الإنسانى فى تزامنه مع الزمن الكونى هى بنية المحصلة التاريخية للمعرفة البشرية.

وزمن الإنسان هو معيار تقويم الأحداث فى تتابعها، والمعرفة التاريخية هى تحييز للزمن فى أحداث وعلاقات، وتحييز آخر، لأحداث الوجود الإنسانى(من خلال تجربة الحياة) فى قطاعات مكانية وعلاقات إنسانية، وهو تحييز متقطع متواصل أيضا، كتحييز تباعدات الأنغام والإيقاعات فى تتابعات متتالية متماثلة أو غير متماثلة، متآلفة أو غير متآلفة، لتكون هى فى النهاية بنية «الفعل» الموسيقى فى تناغمه مع الفعل الإنسانى.

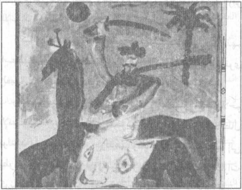
النبـــوءة :

كـمـا حـاول الإنسـان استكناه سـر تـاريخه وإدراك حـاضـره الزمنى، حاول أن يستبق الأحداث ليستشف «الحدث القادم» أو التنبؤ بالواقع الذى سيكون، باعتبار أن المستقبل كائن بالفعل فى آن مقبل، وهو حدث تام لم يدركه بعد.

وتذخر الثقافة الإنسانية بتراثها الأدبى ومأثوراتها الشفاهية - بأنماط من النبوءات التى روتها الملاحم والحكايات الشعبية. فيكون فى إمكان المتنبىء معرفة الذى لم يحدث بعد فى زمن الإنسان الحاضر- مما هو كائن فى زمن العالم الكونى.

وكـان للعـرافين أمـاكـن خـاصـة يسـتطيع الواحـد منهم استشفاف الحدث المستقبلى واستقراء النجوم واستلهام ا لقوى الغيبية فى الاستدلال على ما سيكون.

وتلعب النبـوءة فى الملاحم العـربيـة كـغـيـرها من الملاحم الإنسـانيـة دورا أساسـيـا فى تكوين البطل الملحـمى. فـالأبطال يولدون وفق نبوءة تسبق مولدهم. وتصاحبها إمارات تشير إلى بطولة البطل الملحمى فى المستقبل القريب بعضـها إمـارات كونية غير عادية، وأغلبها إمارات ملحمية تشير فى وضوح إلى قوة البطل غير العادية التي تلفت الأنظار إليه لأول وهلة وتثير



الفارس فى المخيلة الشعبية

الدهشة والترقب فى آن.

وتأتى هذه النبوءات التى ترهص أو تنبىء بميلاد البطل الملحمى عادة - فى صورة نبوءة «أو منام» أو رؤيا صادقة يؤكدها بعد ذلك العرافون على صفحة الرمال، والمنجمون من صفحة السماء، والعارفون بتأويل الأحلام(٥٦).

وفى ملحمة أو سيرة البطل الملحمى العربى سيف بن ذى يزن نجد الوزير يثرب يضرب تحت الرمل على اسم الملك ذى يزن ليتأكد عما إذا كان هو هذا الملك الهمام.. الذى على يده إنقاذ دعوة نوح عليه السلام أم غيره من الأنام.

وحينما يضرب الوزير يثرب تحت الرمل يعرف أن هذه الرسالة ستكون من مسئولية ابن من صلب الملك ذى يزن.. وتروى السيرة فى ذلك صفات المولود الجديد الذى سيحمل الرسالة ويكون سيفا مصلتا على أعدائه تاركه وتحميه قوى السماء.. وتمضى السيرة تروى كيف تحققت هذه النبوءة.. كما تروى قصص العرب أيضا أن سيف بن يزن نفسه قد بشر عبد المطلب برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما حضر ضمن وفد قريش لتهنئة سيف بن ذى يزن لما ظفر بالحبشة. فقد أرسل سيف بن ذى يزن إلى عبد المطلب بن هاشم وخلا به

وأفضى إليه بم وجده فى «الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اختزناه أنفسنا واحتجبناه دون غيرنا» بأنه إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة»(٥٧).

وتتضمن قصص العرب نماذج مختلفة ومتنوعة من البشارات والرؤى التى تسبق الأحداث، وفراسة العرب فى استشفاف سلوك الناس وطرق تفكيرهم.

أما عنترة فلم يولد وفق نبوءة سبقت مولده «وتفسير ذلك يعود إلى طبيعة القضية المحورية التي تنهض السيرة بمعالجتها (تحرير الفرد). ولما كانت سيرة البطل فى الملحمة العربية قدراً لا سبيل إلى تغييره، ولما كان تحرير الفرد، والصراع الداخلى فى الملحمة العربية فى أمرين غير قدريين كنا أمام تناقض بين. ومن هنا لم يشأ القاص العربى أن يجعل عنترة وفق نبوءة، هى سمة من سمات التشخيص الفني للبطل الملحمى، منعا لهذا التناقض..»(٥٨).

وفى سيرة أبى زيد الهلالى نجد موقفا آخر هو تحقيق الدعاء واستجابة رب العالمين لما تتمناه أم أبى زيد، فيتحقق فى الزمن المستقبلى للإنسان ما يرجوه دون فعل إرادى للإنسان.

وتروى السيرة أن أم أبى زيد «لما تكامل حملها طلبت الرواح مع دايتها فاطمة إلي البر فأخذوها إلى عين ماء، وإذا بغراب أسود يطير مع جملة غربان ويضايقهم ويضربهم بمنقاره. وعادت الخضراء تنظر إليهم وقالت : إله السماء أسألك أن ترزقني ولدا ذكرا ولو كان أسوداً يطرد الفرسان مثل هذا الغراب يكر على فرسان البوادى جميعها، ويعلو على كل البدو والحضر». وهكذا ولد أبو زيد، ابن الحرة، أسوداً فى لون العبيد، قويا يفوق بقوته كل الفرسان(٥٩).

والنبوءة في التصور الشعبى، بجانب أنها استباق للأحداث، هى أيضا تجريد للمكان والزمان باعتبار أن «الحديث» هو تحييز للزمان فى المكان.

ورؤيا الأنبياء وأحلامهم هى رؤيا صادقة دائما، ومن الرؤى والأحلام ما يكون رؤية اختيارية بعمل شيء صعب، أو إخبارية لعمل شيء هام مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام وفداء اسماعيل ورؤيا عزيز مصر وتفسير يوسف عليه السلام لها، والاستعداد للسنوات السبع العجاف.

ونبوءة الوفاة للبطل الملحمي تأتى على غرار نبوءة الميلاد أو نبوءة النصر. والبطل يستقبل نبوءة الوفاة بصبر وإيمان، وهو

قد يعرفها في فترة مبكرة من حياته، لكن ذلك لا يحول بينه وبين بلوغ غاياته الملحمية وتحقيقها لسبب بسيط هو أن القدر كائن «والبطل لا يموت إلا بعد القضاء على عنصر الشر في الداخل فإذا ما تم له ذلك، وقضى عليه كان ذلك إيذاناً ببداية النهاية»(٦٠).

وسيرة عنترة تكشف عن هذا الموقف بوضوح. فحينما يستشعر عنترة أن إصابته بالسهم الخوان الذى رماه به الأسد الرهيص غدراً وغيلة قد أصاب منه مقتلا فيرى أن موته قريب.

«ويدور حوار بين عبلة وعنترة حول «الموت» وضرورة التسليم للقضاء والقدر ويأبى أن يبكيه أحد «فهذا حكم رب العباد الذى قضاه، فلا اعتراض عليه فيما قضاه.. وكانت المدة بين إصابته بسهم الأسد الرهيص حتى وقوعه من فوق صهوة جواده الأبجر هي خمسة أشهر إلا أخمسة أيام - ويموت عنترة - في مشهد فنى فريد بين الملاحم العالمية بعامة(٦١)»... إذ يبقى على صهوة جواده «ميتا» ساعات طوالا وأعداؤه يرونه «حيا» فوق صهوة جواده، إلى أن يخرج حصانه من دائرة البطولة إلى طبيعته الغريزية فيسقط عنترة من فوق جواده الأبجر.. وهنا أيضا يتجرد الأبجر من قيمته كجواد الفارس

البطل إلى فرس عادى - وكما يقال فى الأمثال «الفرس من الفارس» وتسقط البطولة الملحمية للفرس بموت الفارس.

الزمن والقضاء والقدر:

والقضاء والقدر هو مقولة الوجود الإنسانى مقدر تقديراً مسبقاً، من حيث الزمن والكيفية .. ولا راد للقضاء والقدر، والحذر لا يحول دون القدر، و«من كان على الدار لا يأمن الغدار».

ومن قول كعب بن زهير بن أبى سلمى بعد أن أعلن إسلامه...

«لو كنت أعجب من شيء لأعجبنى
سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها
والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش محدود له أمل
لا تنتهى العين حين ينتهى الأثر

وما على الإنسان إلا أن يصبر على حكم الزمان.. والزمان والأيام والحياة والدنيا ترتبط فى التصور الشعبى بمقولة واحدة وهى محدودية الزمن الإنسانى، وكلية القضاء والقدر الذى

يتحكم فى هذا الزمن . . فإذا حان القضاء ضاق الفضاء «و» إذا جاء الحين حارت العين» وإذا حلت المقادير بطلت التدابير «و» المقدر لا يغير «والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين» «ولا هروب من المكتوب» .

ومقولة القدر تتناولها الأمثال العربية والعالمية فى صياغات مختلفة ولكنها معا تحدد أن لا مفر من القدر كما يقول المثل العربى والانجليزى و«كل بيد القدر» كما يعبر عن ذلك المثل اليونانى . كما أن المثل اللاتينى يقول «لا مكان يمكنك أن تهرب فيه من القدر» . والمثل الفرنسى يقول . . «منذ يوم ميلادك موتك محدد مثل حياتك» . والدنيا فانية فهى فى حالة محددة من حالات الوجود المطلق وسنة الحياة أن «رحم يدفع وأرض تبلع» فهى فى تغير مستمر و«دوام الحال من المحال» و«كل زمان له دولة ورجال» - كما تردد الأمثال العربية والعالمية بصيغ مختلفة ومضمون واحد ، فالمثل الفرنسى يقول . . : «كل زمان له عاداته» والإيطالى «كل شيء له نهاية» .

ويصور المثل الألمانى الزمن بأنه «طيار» ويقول المثل اللاتينى «لا يوجد لجام يكبح الزمن» وترتبط مقولة الصبر وقدرة التحمل بمقولة الزمن باعتبار أن الصبر هو الذى يستطيع قهر

المتغيرات والصبر هو حالة من حالات السكون ، مقابل حالة الصراع ، فالحياة تمضى بالإنسان «يوم له ويوم عليه» و«لا يوجد غير الصبر لهذا الزمان علاج» كما يتردد فى المجتمع العربى . والمثل الانجليزى يقول «الزمن يشفى الأحزان» .

وعلى الإنسان أن يتوافق مع تغيرات الزمان إذا الزمان لم يتوافق معه . . (إن ما وافقك الزمان وافقه) .

والأمثال الشعبية - تعبر عن تجربة الإنسان ورؤيته الفكرية للحياة بطريقة مألوفة صيغت فى أسلوب مختصر سهل حتى يتداوله جمهور واسع من الناس ، وتتعدد الأمثال العربية كغيرها من أمثال الشعوب فى التعبير عن الزمن «حال الدنيا المتغير عن القضاء والقدر» القدر الذى يسير حياة الإنسان وقد تناولنا ذلك بالتفصيل فى الدراسة المقارنة التى أعددناها مع الأستاذ / أحمد البشر الرومى عن الأمثال الكويتية ونظيرها من أمثال عربية .

والاهتمام بموضوع الزمن فى التراث والمأثورات الثقافية للإنسان وارتباطه بالظواهر الكونية وأجرام السماء لم يقتصر على الدراسات الفولكلورية أو علم الأساطير المقارن وتاريخ الأديان المقارن والدراسات الاثنولوجية والبحث الفلسفى ، بل

امتد إلى مجالات متعددة من المعرفة العلمية والإبداع الفنى.

وانعكست المعارف الفكرية والعلمية على الفن باعتبار أن العمل الفنى يجمع بين المعرفة الموروثة والإضافية الإبداعية، والفن مهما تعددت وسائل التعبير فيه، فهو تعبير مباشر عن الخبرة الإنسانية وكشف مباشر لجوهر المعرفة البشرية من خلال رؤية الفنان لحدث الحياة.

وقد اهتم كثير من الفنانين والأدباء والروائيين والشعراء بقضية «الزمن» من حيث ارتباطها بمفهوم «الموت» والبعث والخلود.. فموت الإنسان هو باعث التساؤل والبحث عن الخلود. والخلود هو استعلاء على حالة التغير الحادث فى زمن الإنسان...

***

خلاصة:

ويذخر التراث الثقافى للشعوب المختلفة بعديد من المعلومات والمدونات التاريخية والمأثورات الشفاهية والتصورات الفلسفية والمقولات الدينية التى تساعد بشكل إيجابى على إمكانية تفسير مفهوم الزمن من خلال التصور الشعبى، بأنه إدراك للتغير الحادث فى الوجود.

فالزمن هو العلاقة القائمة بين التغيرات الحادثة فى عالم السماء بأجرامه، وظواهره الطبيعية، وبين الإنسان فى تجربة وجوده بين الميلاد والموت.

وذلك «الموت» نهاية زمن الإنسان - الذى حاول الإنسان أن يهرب منه ليفوق بإرادته حتمية الصبر.

وزمن الإنسان - الفترة بين الميلاد والموت هو مجال إثبات قدرة الإنسان على الخروج من إطار الحتمية إلى إطار الحرية والاختيار بإرادة الفعل. وهو وفى نفس الوقت تقويم لحدث الوجود الموقوت ببداية ونهاية.. وهو توقيت يرتبط بظواهر الكون كعلل لوجود الإنسان بتغيراته المستمرة.

وتقدم لنا مجموعة الأساطير الكونية تفسيرات لعلل التغير الحادث والكامن في هذه الظواهر، وعلاقة هذه الظواهر وعللها الغيبية بالإنسان، كما تقدم الحكايات الشعبية نماذج من محاولات الإنسان للخروج من عالم الأرض إلى عوالم أخرى، حيث يكون اللقاء بين الإنسان وبين قوى تصورية يفترض أنها تتحكم في زمانه، أو قوى وكائنات تستطيع أن تساعده للخروج من دائرة الحتمي إلى دائرة الممكن.

والأساطير مع الحكايات تشكل بعناصرها بنية المحاولات

الأبدية المستمرة للإنسان للهروب من مصيره بأمل العثور على مخرج من صيرورة الفناء ليتجاوز عالمه الأرضي - عالم الفناء - إلى عوالم أخرى حيث البقاء والخلود.

فجلجامش يبحث منذ القدم عن إكسير الشباب الدائم، وأديسيوس يسعى ليتوافق مع الآلهة التى حددت قدره ويحاول أن يعدل من مستقبل وجوده، وفى مصر القديمة ينظر الإنسان إلى الموت على أنه حالة من حالات الحياة.. فالحياة - «حياته هو» وحياة الكون - هى حاضر مستمر.

وفي الهند لاحظنا اكتمال دورة الحياة، وفى فارس حالة تقابل بين النور والظلام.. وكلها معا تقدم مقولة الموت، فى ازدواجية الوجود الإنسانى، بين عالمين، عالم الجسد الفانى وعالم الروح الباقية. ما عدا مصر حيث تنتفى الازدواجية وتتلاقى الكا والبا والخو. كتلاقى أشعة الشمس مع قرصها مع الروح - آتون- واهبة الحياة للشمس وكل الكائنات في بنية الوجود الكلى للإنسان والطبيعة والكون وعالم الإله الواحد آتون.

والطقوس والقرابين عند كل الشعوب هى محاولة من الإنسان ليكون وجوده فى عالم الأرواح أفضل من وجوده في

عالم الأرض.

كما أن رحلات الإنسان إلى عوالم غير عالمه الأرضي، هى محاولة أخرى، للبحث عن «مكان» يغاير فى طبيعته مكانه المرتبط بزمانه المحدود.

وتدور معظم الحكايات والأساطير التي تتناول موضوع زمن الإنسان حول محورين أساسيين... أحدهما الإرادة والقدرة على الفعل.. وثانيهما القدر وعدم قدرة الإنسان على تحقيق الفعل.

ويتفرع من هذين العنصرين الأساسيين عناصر فرعية عن القوى التي تساعد الإنسان على تحقيق ما يريد.. سواء كانت قوى خيرة أو قوى شريرة.. وحيرة الإنسان تنبع من تردده فى اختيار القوى التى تساعده على إنجاز ما يهوى..

وزمنه هو الحدث الكامن بين الإرادة والفعل. هذا الحدث هو موضوع القضاء والقدر، وزمن الإنسان ما هو إلا حالة ممارسة القدر لقضائه المسبق من قبل وجود الإنسان نفسه.. وزمن الإنسان، ماهو إلا مجال التجربة الإنسانية إزاء قضاء القدر.

ووجود الإنسان نفسه، هو حالة من حالات التغير الحادثة فى الكون.. وهو نقطة التماس الرياضية بين الأزل والأبد.. وبانتهاء وجود الإنسان على الأرض ينتهى الانفصال بين الأزل

والأبد، فيكون المستقبل هو الماضي، والماضي هو المستقبل بلا انفصام بين الإرادة والفعل ولا بين الفكر والعمل. ودون ازدواجية أو ثلاثية الحدث الإنساني..

والفكر الديني وبخاصة ما يرتبط منه بالكتب السماوية حدد زمن الإنسان بأنه حالة من حالات الزمن الكوني... حيث تكون الإرادة فعلا. وصدق تعالى إذ يقول: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»(*).

هوامش الفصل الثالث

(١) راجع العلاقة بين التراث والمأثور في بنية الثقافة بدراستنا، مناهج بحث الفولكلور العربي بين الأصالة والمعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس العدد الرابع (أبريل، مايو، يونيه ١٩٧٦م) ص١٧٣-٢٠١.

(٢) راجع قصة خروج آدم وحواء من الجنة بعد أن وسوس لهما الشيطان ليعصيا أمر ربهما ويأكلا من الشجرة التي أمرهما الله ألا يقرباها.. وعصيا أمر ربهما فأخرجهما الله كما أخرج إبليس من الجنة. (اهبطو بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) انظر القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيتان (٢٤-٢٥)، وكذلك انظر سورة البقرة (الآية ٣٦)، وسورة طه (الآية ١٢٣).

كما نلاحظ أن الصياغة البشرية لهذا الحدث في سفر التكوين تقول: «وقال الرب الإله هو ذا آدم قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمر الأرض التي أخذ منها» بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الإنسان على شجرة الخلد خلسة، ولذلك فقد جعل «لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (سفر التكوين ٣، ٢٢ : ٢٤).

انظر أيضا فصل «عصر الحياة الأولى» من كتاب جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢ ج (١). وقد حاول فريزر في هذا الكتاب (١٩١٨) أن يضع في الاعتبار (النتائج) التي توصل إليها أشهر النقاد فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها. «ذلك أنني أعتقد أن كثيرا من المتناقضات في الكتاب المقدس، لا يمكن أن تقبل تفسيراً منطقياً وتاريخياً معقولاً إلا في ضوء هذه النتائج». فريزر (٢٤٠٢).

(٣) «الشيخوخة، طور من أطوار الحياة وظاهرة من ظواهرها، إذا بدأت فهي مستمرة وبطريقة غير ملحوظة مثل الزمن. وهي إذا بدأت لا تعود إلى شباب». انظر د. فاطمة الغرباوي، الشيخوخة، هل هي مرض..؟، مجلة عالم الفكر، المجلد

السادس، العدد الثالث، وزارة الإعلام / الكويت، (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر ١٩٧٥) صفحة (١٠٩-١٣٢) وانظر أيضا دراسة الدكتور عبد المحسن صالح، «شيخوخة الكون» صفحة ٤٧-١٠٨ من نفس العدد.

(٤) طه باقر، ملحمة «كلكامش» منشورات وزارة الإعلام / الجمهورية العراقية، ١٩٧٥م.

(٥) هذا النوع من طرق الغوص بمعاونة حجر ثقيل كان شائعاً إلى عهد قريب بين الغواصين في منطقة الخليج حينما كان أبناء الخليج يغوصون لحصاد المحار الكامن فيه اللؤلؤ في أعماق اليم.

وهذه الطريقة من طرق الغوص تسمى «حجاري» نسبة للحجارة التي يعتمد عليها الغواص في نزوله إلى قاع البحر.

- انظر، صفوت كمال، مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي، وزارة الإعلام / الكويت - الطبعة الثانية ١٩٧٣، ص ١٦٥ وما بعدها.

- راجع أيضا :

Bibby, Geoffrey. Looking for Dilmun. New York 1969. Alfred A. Knopf, pp. 156-158.

(٦) طه باقر، ملحمة كلكامش ص ٨٥.

والمسافة التي تقطع في الساعة البابلية المضاعفة تبلغ نحو فرسخين وبالضبط ١٠,٨ كم وتكون مسافة ثلاث مرات خمسين ساعة مضاعفة نحو ١٦٠٠كم، وهي المسافة التقريبية بين بلاد بابل ولبنان (الأرز).

(٧) هنا لم يحفر بئراً للتقرب إلى الإله «شمش» كما في النص السابق بل وجد بئراً ونزل فيها ليغتسل «وفي هذا» الموقف النزول في الماء ينشأ الموقف الدرامي بملامحه الإنسانية المأساوية.

(٨) طه باقر، ملحمة «جلجامش»، ص١٤٩-١٥٠.

(٩) Bibby, op. cit., pp/ 164-165.

(١٠) راجع حكايات تغيير الجلد، فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ص ٦٢-٧٢.

(١١) برستيد، تطور الفكر الديني في مصر القديمة، ترجمة : زكي سويدان، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٣٩-١٤٠.

(١٢) أنظر، أحمد كمال، (علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين). طبع

بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع الخديوية، ببولاق في سنة ١٣٠٩هـ.

(١٣) انظر، برستيد، نفس المرجع، ص٣٤٧.

(١٤) أنظر الفصل الخاص بالزمن عند قدماء المصريين، ص٣١-٤٤ من كتاب.

Montet, Pierre, Everyday Life in Egypt in the days of Rameses the Great, London 1958, Edward Arnold Pub. Ions, Veronica, Egyptian Mythology. 1958, Paul Hamlyn.

وكذلك راجع التقويم القبطي المصرى القديم ارتبـاطه بفتـرات العمل في الزراعة من حرث وبذر وري وحصاد، وتغييرات المناخ من حر وبرد ورياح وأمطار، وكذلك العبارات السائدة المرتبطة بمسميات الشهور مثل: (هاتور أبو الدهب المنثور) «كناية عن أنه في شهر هاتور تتم زراعة القمح..» و(كياك صباحك مساك) حيث يوافق هذا الشهر أواخر شهر ديسمبر ويحدث أقصر طول للنهار. (إبراهيم شعلان، الشعب المصرى من خلال أمثاله العامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص: ٢٠٦-٢١٣.

(١٥) وقد قلد الفرنسيون أيام التقويم المصرى في أيام التقويم الفرنسي للثورة (١٧٩٣-١٨٠٥) ويبدأ حسابه من ٢٢ ديسمبر ١٧٩٢ وقسمت فيه السنة إلى اثنى عشر شهراً، والشّهر ثلاثين يوماً. وعرفت الأيام الخمسة الباقية بأيام الشعب وجعلت أعياداً. وفي السنوات الكبيسة عرف اليوم الزائد وهو آخر أيام السنة بيوم الثورة، وقسمت الشهور إلى ثلاث عشريات، وجعل اليوم العاشر في كل منها يوم عطلة. (الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٥م ص٥٣٨).

(١٦) وقد وضع عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ التقويم الهجرى وقد بدا في ١٦ يوليو ٦٢٢م. ويبدأ من شهر المحرم وينتهي بذى الحجة.

أما التقويم الميلادى فإنه يرجع إلى التقويم الرومانى الذى وضعه (بومبليوس) ثاني ملوك روما وجعل شهر فبراير ٢٩ يوما يضاف إليه(Numa Pompilius) يوم آخر كل أربع سنوات ليكتمل ثلاثين يوما. لكن بعد ٦٠٠ عام في عام (٤٦م) حينما تقلد أوكتافيوس حكم روما ومنح لقب أغسطس امبراطور روما في النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد، فقد احتار الشهر الذى يلى شهر يوليو المنسوب إلى عمه يوليوس قيصر (Julius Ceaser) وجعل شهره كشهر يوليو واحدا

وثلاثين يوما . وأخذ اليوم الزائد أى الواحد والثلاثين من شهر فبراير وبذلك أصبح فبراير ٢٨ يوما ، وكل أربع سنوات ٢٩ يوما . . .
وأسماء الشهور والأيام بل أسماء التقاويم (مثل التقويم الجريجورى المتبع للآن فى السنة الميلادية) ، ارتبطت بعناصر من التراث الأسطورى وأسماء الآلهة التى يرمز لها بالظاهرات الكونية وبخاصة أجرام السماء المتحركة كالشمس والقمر والمريخ وعطارد والمشترى والزهرة وزحل ومن أسمائها الإغريقية والروكانية والجرمانية اشتقت أسماء أيام الأسبوع كما ارتبطت بمعتقدات واحتفالات راجع :

١- Chaundler, Christine, A Year Book of the Stars, London 1956
A.R. Nowbrayr & Co.

٢- Chaundler, Christine, A Year Book of Legends, London 1962
A.R Mowbray & Co

٣- Chaundler, Christine, A Year Book of Folklore, London 1959,
A.R. Mowbray & Co.

٤- كريمر ، أساطير سومر وأكاد ، فى أساطير العالم القديم .
٥- الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٥٣٨ .

(١٧) ماكيل هـ . جيمسون ، أساطير اليونان القديمة ، ص ١٩٧-٢٤٤ من كتاب أساطير العالم القديم ٤ .
(١٨) انظر : جيمسون ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ ، و توماس بلفينش (Bulfinch) عصر الأساطير ترجمة ، رشدى السيسى ، مراجعة محمد صقر خفاجة ، النهضة العربية ، القاهرة / ١٩٦٦ .
(١٩) أوديسة هوميروس ، ترجمة أمين سلامة ، دار الأدباء ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ٢٦٦ - و ، هوميروس ، الأوديسة ، ترجمة عنبرة الخالدى ، دار العلم للملايين ، بيروت نوفمبر ، ١٩٧٤م . ص١٣٥ .
(٢٠) فرجيل ، الإلياذة ، ترجمة عنبرة سلام الخالدى ، دار العلم للملايين ، بيروت (يناير ١٩٧٥) ، ص١٤٩ .
(٢١) «بلفينش» ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ وما بعدها .
(٢٢) عند الحديث عن أساطير اليونان وتصوراتهم لفكرة الزمن لابد من الإشارة إلى التصور الفلسفى الإغريقى وبخاصة فى المدرسة الإيلية التى خرجت من إطار التأمل

الأسطوري إلى النظر الفلسفي، حينما نادى بارمنيدس في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد بفكرة الثبات مقابل التغير. وأن الحقيقة لابد أن تكون عقلية لتكون ثابتة، ودائمة. وأما المدركات الحسية فمتغيرة وبها كثرة وتعدد، وإذن فهي ظواهر لا تمت بصلة إلى الحقيقة الواحدة الساكنة الأزلية الأبدية. وقد تبعه في ذلك تلميذه زينون الايلي ٤٩٠-٤٣٠ ق.م، الذي برهن على استحالة الحركة والكثرة تأييداً لمذهب بارمنيدس في أن الكون - واحد وساكن- وقد اعتبره أرسطو أول من استخدم الطريقة الجدلية.

(٢٣) انظر:

New Larousse Encyclopedia of Mythology

Dorson, Richard, London 1969, Paul Hamlyn - London pp. 87-90.

(٢٤) انظر علي عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي، ص ٨٨-١٠١.

(٢٥) Ions Veronica, Indian Mythology, Verona - London 1958, Paul Hamlyn (second edition) 1968, pp. 24-36.

Larousse Encyclopedia of Mythology, Indian Mythology, p.p. 324-378.

و - نورمان براون، أساطير الهند ص ٢٤٥-٢٨٨ من كتاب أساطير العالم القديم.

(٢٦) راجع الدراسة المقارنة للأساطير الهندوكية والإغريقية في كتاب :

Dorson, Richard (ed). Peasant Customs and Savage Myths. Vo. 1. pp. 87-89.

(٢٧) م. ج. درسدن، أساطير ايران القديمة، ص٢٨٩-٣١٧ من كتاب أساطير العالم القديم، عصر الأساطير، ص٤٣٤-٤٣٧.

(٢٨) محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥، ص٢٤١ ومابعدها.

وإحسان يار شاطر، الأساطير الإيرانية القديمة، ترجمة محمد صادق نشأت، دار الانجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٥.

(٢٩) ديرك بوى، أساطير الصين القديمة، ٣٢٧-٣٦٧ من أساطير العالم القديم.

(٣٠) فون دير لاين، الحكاية الخرافية، ترجمة، نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت، إبريل ١٩٧٣.

(٣١) انظر عرضنا لأساطير الخلق في اليابان بمقالنا (أساطير الخلق، مجلة عالم الفكر المجلد الثاني- العدد الأول / أبريل سنة ١٩٧٢).

(٣٢) قال الله تعالى: (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون). سورة الحج - الآية ٤٧.

(٣٣) الكزاندر هجرتي كراب، علم الفولكلور، ترجمة، رشدي صالح، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧ م. ص ٤٠٩.

وراجع أيضا مقالنا «أساطير الخلق» (السابق الإشارة إليه) - عن حكايات الصراع بين الشمس والقمر.

(٣٤) راجع الفصل الخامس، الخاص بحكايات رحلات إلى عوالم أخرى غير عالم الإنسان الأرضي في كتاب: Thompson Stith, The Folktale, New York 1946, Holt Rinehart and Winston. pp. 345-352.

ولنفس المؤلف انظر أيضا فهرس (طرز الحكايات الشعبية) التي تتضمن عناصر رئيسية عن القوى البشرية التي تساعد أبطال الحكايات.

(٣٥) انظر الفصل الخاص بالجن من كتاب: الموروث الشعبي في آثار الجاحظ، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة المعاجم والفهارس بغداد ١٩٧٦، ص٦٧-٨١.

(٣٦) قصص العرب، محمد أحمد جاد المولى وآخران، عيسى البابي الحلبي وشركاه طبعة جديدة بها إضافات - القاهرة ١٩٧٢م، ج (٤) ص٣٩٦-٣٩٧ القصة ١٢٩ (جان يختطف فتاة).

(٣٧) راجع، حكايات ألف ليلة وليلة. وانظر، ألف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوي، الفصل الخاص بالخوارق. دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩.

(٣٨) دنيس بولم، الحضارات الافريقية، ترجمة على شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٤، ص ١٣٤.

(٣٩) Dorson, R., Peasant Customs and Savage Myths. Vol. 1,p.120 The British Folklorists. A History. London 1968, pp. 171-174.

(٤٠) راجع، التحكم في الشمس عن طريق السحر، فريزر، الغصن الذهبي، ج١، ص٢٨٩-٣٠٤.

(٤١) راجع موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام، ازاء ظواهر الكون، وحدسه الفطرى

الذى هداه إلى إدراك سر التغير فى أجرام السماء.
القرآن الكريم - سورة الأنعام، الآيات من ٧٤ - ٧٩.
فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، ج١ ص٦٦ - ٦٧.
(٤٢) Werner, Alice, African Mythology, in : The Mythology of all Races, New York 1964, Cooper Sqare Publishers, Vol. VII. pp. 227-228.
(٤٣) فريزر، الفولكلور فى العهد القديم ج١، ٢٢٦-٢٢٧.
(٤٤) القرآن الكريم، سورة يونس، الآية (٥).
(٤٥) القرآن الكريم، سورة السجدة، الآية (٥).
(٤٦) القرآن الكريم، سورة المعارج، الآيات ٤-٩.
(٤٧) أبو الوفا التفتازانى، الإنسان والكون فى الإسلام، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد الثالث - اكتوبر / نوفمبر / ديسمبر، ١٩٧٠، ص٩٧ - ١٤٠.
(٤٨) راجع القائمة الببلوجرافية الوافية عن هذا الموضوع فى كتاب :
Dorson, Richard, The British Folklorists, A History, pp. 442-460.
(٤٩) فريزر، الغصن الذهبى، ج١، ص ٢٥٤.
(٥٠) قصص العرب، جمعها محمد أحمد جاد المولى وآخرون، عيسى البابى وشركاه، القاهرة عام ١٩٧١ ج (١) ص(٣٩٣).
(٥١) راجع العرض التفصيلى لهذه الجهود فى كتاب : R. Dorson, op. cit والقائمة الببلوجرافية التى أوردها فى نهاية كل كتاب.
(٥٢) جان مارى أوياس، البنوية، ترجمة ميخائيل مخول، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى، دمشق، ١٩٧٢، ص٦٩.
(٥٣) Malinowski, Bronislaw, A Scientific Theory of Culure and other Essays, Oxford University Press, New York 1960, A Glaxy Book. p. 38.
Klyckhohn, Clyde, Universal Categories of Culture, in "Anthropology Today", Chicago 1953, The Iniversity Press, 507-523.
Levi-Strauss. Claude, Social Structure in, "Anthorpology Tday", pp. 553
(٥٤) فقرة من الحوار الذى دار بين ليفى شتروس و«الفريق الفلسفى» لمجلة "Esbrit"

وقد نشرت المجلة هذه المحاورة في نوفمبر ١٩٦٣م - راجع ص ٢٦٧-٣٠١، من كتاب «البنيوية» جان ماري أوزياس وآخرون، ترجمة: ميخائيل مخول، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٢، ص (٢٩٥).

(٥٥) المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٥٦) راجع: د. محمد رجب النجار، البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة ١٩٧٦م «لم تنشر بعد» راجع الفصل الخاص بميلاد البطل، ص ٥٤٣.

(٥٧) قصص العرب، جزء (١) ص ١٠٤-١٠٧.

(٥٨) د. محمد رجب النجار، المرجع السابق، ص ١٥.

- راجع أيضا: محمود الحفني، سيرة عنترة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

(٥٩) عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب، ص ٤٣-٤٤.

(٦٠) راجع الفصل الخاص بموت عنترة ص ٨٩١-٩٠٠، من دراسة د. محمد رجب النجار التي سبق الإشارة إليها.

- والفصل الخاص بمرحلة التجريد أو مرحلة الامتداد من كتاب، محمود الحفني، سيرة عنترة، ص ٢١٤ وما بعدها.

(٦١) نفس المراجع السابق ص ٢١٠-٢١٢.

(*) القرآن الكريم، سورة يس، آية (٨٢).

المراجـــــع

* المراجع العربية :
- إبراهيم شعلان ، الشعب المصرى ، من خلال أمثاله العامية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ .
- أبو الوفا التفتازانى ، الإنسان والكون فى الإسلام ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الثالث ، وزارة الإعلام الكويت ، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٠م ص٩٧-١٤٠ .
- إحسان يارشاطر ، الإساطير الإيرانية القديمة ، ترجمة محمد صادق نشأت ، دار الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م .
- أحمد كمال ، علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين ، مطبعة مدرسة الفنون والصنائع الخديوية ، بولاق سنة ١٣٠٩هـ .
- الأسطورة والرمز ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، منشورات وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٣ .
- الكزندر هجرتى كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدى صالح ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م .
- ألف ليلة وليلة - منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (٤ أجزاء)
- ألف ليلة وليلة - سهير القلماوى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩م .
- برستيد ، تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ، ترجمة زكى سويدان . القاهرة ، ١٩٦١م
توماس بلفينش ، عصر الأساطير ، ترجمة ، رشدى السيسى ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- جان مارى أوزياس ، البنيوية ، ترجمة ميخائيل مخول ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، دمشق ١٩٧٢م .
- جيمس فريزر ، الفولكلور فى العهد القديم ، ترجمة نبيلة إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢م .
- جيمس فريزر - الغصن الذهبى ، الترجمة العربية ، بإشراف ، أحمد أبو زيد ، الهيئة

المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م. ج(١).
- دنيس بولم، الحضارات الإفريقية. ترجمة علي شاهين. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٤م
- صفوت كمال، مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي، الطبعة الثانية، وزارة الإعلام - الكويت ١٩٧٤م.
- صفوت كمال. مناهج بحث الفولكلور العربي بين الأصالة والمعاصرة، مجلة عالم الفكر / المجلد السادس- العدد الرابع (إبريل - مايو - يونيه ١٩٧٦م) وزارة الإعلام / الكويت ص ١٧٣- ٢١٠.
- صفوت كمال، أساطير الخلق، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الأول، ابريل ١٩٧٢م.
- صموئيل نوح كريمر (ناشر)، أساطير العالم القديم، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.
- صموئيل نوح كريمر، السومريون. تاريخهم وحضارتهم، ترجمة فيصل الوائلي / وكالة المطبوعات - الكويت، ١٩٧٣م
- طه باقر، ملحمة جلجامش،منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٥م
- عبد المحسن صالح «شيخوخة الكون» مجلة عالم الفكر، المجلد السادس، العدد الثالث وزارة الإعلام، الكويت (أكتوبر نوفمبر - ديسمبر) ١٩٧٥م. ص(٤٧-١٠٨).
- عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني القديم، ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠م.
- فاطمة الغرباوي، الشيخوخة، هل هي مرض. مجلة عالم الفكر، المجلد السادس العدد الثالث وزارة الإعلام، الكويت، (اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر) ١٩٧٥م (١٠٩-١٣٢).
- فرجيل، الالياذة. ترجمة عنبرة سلام الخالدي. دار العلم للملايين، بيروت، يناير ١٩٧٥م
- فون ديرلاين، الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت، ابريل ١٩٧٣م.
- محمد أحمد جاد المولى، وآخران، قصص العرب، عيسى البابي الحلبي وشركاه،

أربعة أجزاء (١٩٧١-١٩٧٣).
- محمد رجب النجار، البطل في الملاحم الشعبية، قضاياه، وملامحه الفنية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٧٦. (لم تنشر بعد).
- محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- محمود الحفني - سيرة عنترة - الدار القومية - القاهرة.
- الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٥م
- هوميروس، الأوديسة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت، نوفمبر ١٩٧٤م.
- أوديسة هوميروس، ترجمة أمين سلامة، دار الأدباء، القاهرة، ١٩٦٦م.

* المراجع الأجنبية:

African Folktales & Sculpture. Introduction James Johnson Sweeney. London 1965. Secker & Warburg.

African Myths and Tales. ed. by : Susan Feldmann. New York 1963. Dell Publ. Co.

Bibby, Geoffrey, Looking for Dilmun, New York 1969, Alfred. A. Knopf.

Bulfinch's Mytholog, London 1969, The Hamlyn Publishing Group Co. Ltd.

Chaundler, Christine, A Year Book of the Starts, London 1956, A.R. Mowbray Co,

Chaundler, Christine, A Year Book olfegends, Lonon 1962, A.R. Mowbray Co.

Chaundler, Christine, A Year Book of folk-Lore, London 1959, A.R. Mowbray Co.

Davis, J.G., Mythological Influences on the first Emergence of Greek Scientific and philosophical Though, in "Folklore Society.

Dorson, Richard, (ed) Peasant Customs and Savage Myths. Vol. 1. London 1968, Routledge & Kegan Paul.

Dorson, Richard, (ed) The British Folklorists.. A History. London 1968. Routlede & Kegan Paul.

Encyclopedia Americana (The), New York 1963, Americana Corporation, ol. 19-Mythology

Encyclopedia of Religion and Ethics, ed. by: James Hasting. Edinburgh 1954, T. &T. Clark, Vol. IV, - Cosmogony and Cosmology.

Grant, Michael, Roman Myths, Pelican Books 1973.

Ions, Veronica, Egyptian Mythology, London 1958, Paul Hamlyn.

Ions Veronica, Indian Mythology, London 1958, Paul Hamlyn.

Kluckhohn, Clyde, Universal Categories of Culture, in : "Anthoropology Today" Chicago 1953, The Inversity Pres..

Levi-Strauss, Claude, Social Structure, in "Anthropology Today", Chicago 1953, The University Press.

Malinowski, Bronislaw, A Scientific Theory of Culture and other Essays, Oxford niversity Press, New York 1960. A Glaxy Book.

Montet, Pierre, Everday Life in Egypt in the days of Ramesses the Great, London 1958, Edward Arnold publ.

New Larousse Encyclopedia of Mythology, Introduction by Robert Graves, London 1969 Paul Hamlyn.

Rollo, Ahmed. The Black Art, London 1966, Arrow Books.

Standard Dictionary of Folklore, Mythology, and Legend, New York 1972, Funk & Wagnalls Phulishing Company, Inc.

Thompson, Stith, The Folktale, New York 1946, Holt Rinehart and Winston.

Thompson, Stith The Types of the Folk-Tale A Classification and Bibliography, F.F.C. No. 184, Helsinki 1964.

Werenr, Alice, African Mythology, In: " The Mythology of all Races. New York 1964. Cooper Sqare Publishers, Vol. VII.

World Treasury of Proverba (A), Collectd by Henry Davidoff, London 1961, Cassell & Co. Ltd.

الفصل الرابع

الفن الأفريقى
«النحت»

شهد هذا القرن اهتماماً كبيراً بالفن الأفريقى وخاصة فن النحت، الذى يعتبر أبرز أشكال التعبير الفنى الأفريقى، لما له من دور مباشر فى الحياة اليومية فى المجتمعات الأفريقية، سواء فى الاستخدامات النفعية أو الطقوسية.

يعادل هذا الاهتمام الحديث بالفن الأفريقى، اهتمام آخر ساد فى القرن الماضى بين علماء الدراسات الإنسانية والباحثين والإثنولوچيين، والأنثروبولوچيين والإثنوجرافيين الذين يهتمون بدراسة الإنسان خاصة فى المجتمعات البدائية - ثقافته ونظمه الاجتماعية وأساطيره،

وعاداته وتقاليده، وعالم الخرافة والسحر الذى يشكل جانباً أساسياً فى الفكر الأفريقى البدائى.

هذه الاهتمامات العلمية سبقها اهتمام آخر فى القرون الماضية، بارسال البعثات التبشيرية المسيحية، والرحالة الأوروبيين ثم حملات الغزو الاستعمارى، واستجلاب الموارد الطبيعية والقوى البشرية من أفريقيا وتصديرها إلى الغرب.

وفى مطلع هذا القرن ظهرت فى أوروبا، موجة كبيرة من الانبهار والاندهاش بروعة الفن الأفريقى وخاصة فن النحت، تحمل فى جانبها الإنسانى شكلا من أشكال التعاطف الثقافى للحفاظ على هذا التراث الإنسانى المعايش لحضارتنا المعاصرة، والكشف عن قيم الإبداع الفنى الذى يتميز بأنه تعبير مباشر صادق عن الإنسان، كإنسان هذه الموجة الجديدة، تحمل أيضاً فى جانب آخر من جوانبها فائدة أخرى ونفعاً جديداً للإنسان الأوروبى باعطائه مجالاً جديداً من التجارة بعد أن كسدت التجارة بالإنسان الأفريقى - بالتجارة فى ابداع هذا الإنسان .

ولكن.. الأمر الذى لاشك فيه، أن هذا الاهتمام قد أعطى أبعاداً جديدة فى فهم وتقييم الإنسان الأفريقى والحضارة الأفريقية. كما بدلت إلى حد ما - الدراسات العلمية الجادة

والمعارض الفنية العديدة نظرة التفوق العنصرى والاستعلاء الحضارى التى كان ينظر بها الإنسان الأوروبى الأبيض إلى أخيه الإنسان الأفريقى الأسود. ففى السنوات الأخيرة، ومن بعد الحرب العالمية الثانية، صدرت دراسات عديدة تقدم المزيد من المعرفة والادراك لخصائص الفن الأفريقى والحياة الأفريقية.

ومن الكتب التى ظهرت أخيراً فى السنوات القليلة الماضية (١٩٦٨) كتاب الفن الأفريقى، النحت، لپيير موزيه، أمين متحف الفنون الأفريقية وجزر أقيانيا، بباريس[١].

والكتاب يقع فى ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير ويضم ٦٠ لوحة فوتوغرافية ملونة، ١٨٠ صورة فوتوغرافية (أبيض - أسود).

تعتبر من أهم وأجمل التسجيلات الفنية للقطع النادرة الممتازة من النحت الأفريقى، وهى من تصوير المصور الفوتوغرافى السويسرى، اندريه هيلد (Andre Held).

يعتبر موزيه، مؤلف هذا الكتاب، من الثقاة فى الفن الأفريقى، وسبق له أن كان مديراً للمعرض الدولى للفن الزنجى الذى أقيم فى داكار وباريس فى المدة من ١٩٦٥ - ١٩٦٦.

وتمثل المجموعة المصورة فى الكتاب، أهم القطع الفنية



تمثال من البرونز لقواس يرتدى ملابس الصيد، وعلى ظهره جعبة السهام،
من أعمال جيبا بنيجيريا

الموجودة فى المتاحف الأوروبية والأمريكية، ومن المقتنيات الخاصة لبعض الأفراد .

والكتاب فى تبويبه يعتبر أربعة أقسام رئيسية .

القسم الأول : مقدمة، يقدم فيها المؤلف وجهة نظره وانطباعاته عن الفن الإفريقى وخاصة فن النحت، والغرض من وضع هذا الكتاب، وكذلك موقف الفن الإفريقى فى أوروبا، ثم ارتباط هذا الفن بالحياة اليومية والاجتماعية فى المجتمعات الإفريقية. ويفرد لكل موضوع من هذه الموضوعات عنواناً خاصاً فرعياً ضمن القسم الأول الذى يعتبر مدخلاً ومقدمة للكتاب .

وفى القسم الثانى، يقدم، مسحاً تاريخياً Historical Survey للفن الإفريقى وفى القسم الثالث، يتحدث عن المواد المستخدمة وحرفية العمل Materials and Techniques .

ثم يقدم فى القسم الرابع تقسيما شاملا عن الأساليب Styles التى يتميز بها النحت الإفريقى بين القبائل المختلفة المنتشرة فى وسط وجنوب وغرب أفريقيا ويتناول أساليب ٤٥ منطقة وقبيلة. ثم يلحق فى ختام حديثه قسماً يضم مجموعة من الصور الفوتوغرافية مقسمة تقسيماً جغرافياً حسب البلدان

الإفريقية موضوع بحثه .

وفى نهاية الكتاب يقدم قائمة بأهم المراجع فى الفن الإفريقى ومعجماً موجزاً للألفاظ والمسميات الافريقية التى وردت فى الكتاب وخريطة تبين أماكن انتشار القبائل التى تناول إبداعها الفنى أو عرض صوراً لانتاجها فى فن النحت . هذه الخريطة، تساعد فى معرفة الصلات الجغرافية والاجتماعية بين القبائل، وأسباب انتقال وحدات وعناصر فنية من مجتمع إلى مجتمع، كما تساعد فى توضيح ومعرفة بعض أوجه التشابه والتفرد فى أساليب أو نوعية النحت الإفريقى، تبعاً للصور والشروح والتعليقات التى أوردها المؤلف .

وقد بدأ المؤلف حديثه فى أول سطر من كتابه بسؤال استفسارى يوجهه للرجل الغربى يقول فيه : «قبل أن ننفعل ونتأثر بجمال الفن الإفريقى، هل يمكن لنا أن نتخلى عن الثقافة الغربية التى ورثناها، والتى تسيطر على مجال رؤيتنا وادراكنا ؟ هل يمكن أن نمارس غسيلا جماليا للمخ ؟ (Aesthetic Brain Wash)، كما يرجو أن يتحقق تبادل سليم فى وجهات النظر مع وضع تعريف محدد وقواعد علمية واضحة فى علم الجمال، يساعد فى تقييم القيم الجمالية الإفريقية، كما يأمل فى أن

يساعد التبادل السليم فى المعرفة - فى المستقبل - على إيجاد نوع من اللغة الفنية العالمية Universal Plastic Language «محتمل أن يكون مثل هذا التطور غير مرغوب فيه، ولكنه من المحتمل أن يكون أمراً حتمياً لا مفر منه».

الغرض من الكتاب :

ليس القصد من هذا الكتاب - كما يقول المؤلف - اعطاء تعريف للفن الإفريقى وأنماطه المتعددة فى التعبير، بقدر ماهو محاولة لالقاء الضوء على الأعمال الإفريقية الفنية من تماثيل وأقنعة مما يستخدم فى الحياة اليومية الجارية وليقدمها «بما يحوطها من احترام لدى المجتمع الإفريقى» (بعض من هذه القطع الفنية لانجد له مثيلاً فى أى مكان فى العالم إلا فى العصر الذهبى للنحت المصرى القديم).

الفن الإفريقى وأوروبا :

فى بداية هذا القرن كان الفن الإفريقى كدين جديد للفنانين، وكما أن كل دين له معجزات، فالفن أيضاً له معجزاته الخاصة وقد كان الفن الإفريقى بالنسبة إلى الفنانين العظام.. مثل، بيكاسو Picasso، براك Braque، دران Derain، فلامينك Vlaminck، وماتيس Matisse معجزة تخرجهم من القيود

المتعارف عليها إلى آفاق من الحرية الشاملة فى التعبير .

إن مبدعى المدرسة التكعيبية (Cubism) والوحشية (Fauvism) قد تأثروا فعلا بأشكال الفن الإفريقى وألوانه الصارخة وتكويناته .

والباحثون الإثنولوجيون، دارسو ثقافات الشعوب، المحبون للفن، مثل مارسيل جريول Marcel Griaule، ميشيل ليرى Michel Leiris، دينيس پولم Denise Paulme، جاكلين ديلانچ Jacqueline Delange ووليام وبرنارد فاج William and Bernard Fagg أو غيرهم ممن ذكرهم المؤلف فى الصفحة الثامنة من كتابه - حينما يحاولون الاقتراب من الفن الإفريقى ووضع اجابة لاستفساراتهم العلمية، يشعرون باحترام شديد لهذا الفن، واعجاب وعاطفة خاصة نحو هذه المعرفة الغامضة(٢) .

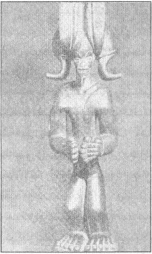
ويأمل المؤلف أن يأتى الوقت الذى يقيم فيه الأفريقيون فنهم بأنفسهم، ولا غرابة فى ذلك فإن الفن المصرى وفنون العصور الوسطى لم تقيم وتدرك أدراكا حقيقيا إلا فى القرن التاسع عشر . وما علينا إلا أن ننتظر بعض الوقت حتى تقدم لنا نظريات صحيحة نابعة عن إيمان ومنهج علمى وارتباط وثيق بالقيم الثقافية القديمة فى المجتمعات الإفريقية .

ويستمر المؤلف فى تعاطفه الفكرى مع الفن الإفريقى، وانبهاره بالإبداع الفنى المتمثل فى قطع النحت، مستشهداً بنماذج منها مما يقدمه فى كتابه. ويصف الفن الإفريقى بأن «الصدق فيه يكمن فى القوة الأساسية المتوارثة التى تتفجر فى أشكال التعبير الفنى، ولو كان أصحاب هذا الفن أكثر تطلعاً وحباً للاستطلاع وأكثر صفاء ذهنيا.. فإن هذه القوة سوف تتفجر أمام أعينهم».

ويذكر المؤلف بعد ذلك عبارة نقلها عن أحد حكماء مالى (Mali) وواحد من ورثة وحملة التقاليد الإفريقية، وهو هامپتا با Hampta Ba «إن النساجين والنحاتين وصانعى الفخار والحدادين، كانوا أعضاء فى مجتمعات خاصة. حيث كان «الاسطوات» يعلمون الصبية الحرفة المقدسة. وهم يتعلمون لا لاكتساب معاشهم بل ليهبوا أنفسهم إلى هذه الحرفة المقدسة لكى ينالوا رضاء الآلهة وأرواح أسلافهم».

قوة أم فتنة:

يختار المؤلف مثل هذا العنوان (Power or Charm)لتساؤلات يطرحها فى محاولة لتقييم النحت الإفريقى، ولا يعطى إجابة محددة، بل يشير إلى اللوحات التى يعرضها الكتاب، وكأنه



تمثال من الخشب الصلد يمثل الأسلاف من قبيلة باجوكوي - بالكونجو

بذلك يحاول أن يقول إن العمل الإفريقى يفوق حدود المقاييس والمعايير التى نحكم بها الإبداع الفنى، تلك المعايير والمقاييس التى وضعتها لنا ثقافتنا المصنوعة المتعارف عليها، ورغم الكم الكبير من النحت الإفريقى الموجود حالياً فى المتاحف الأوروبية، فإنه لا يمثل فى الواقع إلا جزءاً يسيراً مما انتجته أفريقيا، سواء من حيث الكم أو النوعية. كما أننا يجب أن لا نغفل ارتباط النحت الإفريقى، وخاصة الأقنعة بغيرها من أشكال الإبداع الفنى فى المجتمعات الإفريقية وبصفة خاصة الرقص. فالأقنعة مرتبطة بالاحتفالات الطقوسية التى تؤدى فيها رقصات ترتبط بالفكر العقائدى السائد بين القبائل وبحكم نظرتهم إلى مواضيع الحياة والكون.

كما يجب أن نلاحظ أن الفن الإفريقى لا يرتبط بالمعابد مثل ما هو حادث فى الفن الإغريقى أو الرومانى، فالفن الإفريقى، هو ممارسة فى الحياة. وهو نتاج معروف ومقبول من الصانع والمستخدم.

مسح تاريخى : Historical Survey

بعد أن يقدم المؤلف الفن الإفريقى فى عشرين صفحة تقريباً من كتابه، يخصص حوالى ثلاثين صفحة لحديث تاريخى عن

هذا الفن .

فأقدم الاكتشافات الحفرية الإفريقية لا تمتد إلى أبعد من القرن الخامس قبل الميلاد . كما أن الإغريق لم يتعرفوا فى أفريقيا على أكثر من قطاعها الشمالى ، مما كان يسمى حينذاك بليبيا . كما نجد فى كتابات هيرودوت وصفا لرجال (شعورهم مجعدة أكثر من غيرهم) ، ومحتمل أن يكونوا من الزنوج . كما ذكر المؤلف أثر وأهمية الحضارة النوبية القديمة واحتمال أن النوبيين Nubians من أصل أفريقى ، وأن زنوج أفريقيا موضوع هذا البحث ، قد امتدوا إلى الشمال فى وقت من الأوقات أكثر من انتشارهم فى عصورنا الحديثة .

ويرى المؤلف ، أننا لو قبلنا هذا الرأى - بوجود حضارة نوبية أقدم من عصر الاسرات فى مصر ، وكانت تمتد إلى الجنوب مثل امتدادها إلى الشمال ، فإننا يمكن أن نصل إلى نتيجة ترجح أن السلالات الزنجية القديمة قد أعطت معينا فكريا وفنيا إلى حضارات البحر الأبيض المتوسط . ورغم أن ذلك مجرد افتراض ، إلا أن المؤلف يأمل أن يعاون العلم فى اكتشاف بعض الحقائق . فنوبيا كانت مركزاً تجارياً مهما ، ويمتد تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . وقد ظلت حقباً طويلة طريقا هاما بين شمال

أفريقيا – مصر وليبيا – وجنوبها . كما نجد في عدد من قطع النحت البارز (base - rliefs) المصرى تصاوير لحيوانات متوحشة من أفريقيا مما لا يعيش على ضفاف النيل، سواء ضفافه السفلى أو الوسطى . ويقدم المؤلف دلائل أخرى على اتصال نوبيا بمصر، فمثلا، بعض آلهة مصر، مثل آمون أوزيريس نجد لهما فى بعض الأحيان أجساماً سوداء، مثل إيزيس التى تعتبر إلهة سوداء .

ثم يتحدث المؤلف بعد ذلك عن الارتباط بين أساطير ساو Sao – وهى من الإمبراطوريات الإفريقية القديمة فى تشاد Chad– والأساطير المصرية من حيث ارتباط الماء بالأرض. كما أن أسطورة الأفعى ماكارى Makari تشبه أسطورة أوزيريس الذى قطعت أعضاؤه . فقد تقطعت ماكارى أيضاً إلى سبعة أجزاء ودفن كل جزء منها فى مكان مختلف، وفى المكان الذى به الرأس أقيم القصر الملكى .

والواقع أن الاستشهادات التاريخية التى يقدمها المؤلف لا يمكن النظر إليها كتأريخ لهذا الفن بقدر ماهى محاولة لإثارة تساؤلات عن القيمة الحضارية لهذا الفن . وهو فى عرضه التاريخى أشار إلى ما كتبه المؤرخون الأوروبيون عن إمبراطورية

ساو Sao، وما ورد فى بعض المخطوطات العربية من ذكر لها مثل ما ذكره المقريزى الجغرافى العربى فى القرن ١٤ عن كوتوكو Kotoko[٣] شعب امبراطورية ساو، كما أشار إلى بداية غزو الرجل الأبيض لافريقيا وأثر ذلك فى إدخال بعض المفاهيم والتصورات الجديدة الغربية على الفكر الإفريقى. وتأثر الإبداع الفنى الإفريقى فى بعض المناطق بهذه المفاهيم الجديدة، واحتفاظ جماعات أفريقية بتراثها التقليدى.

ثم ينتقل إلى الحديث عن أهم الاكتشافات الحديثة فى النحت الإفريقى وخاصة مجموعة بنين Benin بنيجيريا المشهورة بلوحاتها الفنية والتى أثارت اهتماماً كبيراً فى الأوساط الفنية الأوروبية، كما أعطت أبعاداً جديدة فى فهم الفن الإفريقى.

خلال هذا العرض التاريخى قدم المؤلف نماذج من الأعمال الفنية الرائعة من قطاعات سكانية مختلفة فى افريقيا. وربط خلال حديثه بين الفن التشكيلى ودلالاته الطقوسية واستخداماته السحرية.

كما أورد وصفاً لأحد الرحالة البريطانيين يسمى بودخ Bowdich زار ملك أشانتى فى القرن الماضى. ومن خلال هذا

الوصف يمكن أن نتبين مدى الثراء ونوعية الحياة التى كان يعيشها هذا الملك وشعبه فقد كان يتزين بأساور من ذهب كما أن أحزمة حراسه كانت مغطاة بالذهب .

ومنذ القرن الخامس عشر بدأ الغزو الأوروبى لإفريقيا واستجلاب مواردها الطبيعية وتصدير القوى البشرية ونقل الكثير من التحف الفنية إلى المتاحف الأوروبية . . كما قامت البعثات التبشيرية المسيحية بالعمل على نشر الدين المسيحى بين بعض المجتمعات الإفريقية .

ومن خلال زيارة المقتنيات الفنية الإفريقية الموجودة بالمتاحف الأوروبية ، وعلى سبيل المثال المتحف البريطانى يمكن أن نتبين بشكل واضح مدى ثراء الفن الإفريقى مادة وإبداعاً .

بعد هذا العرض التاريخى انتقل المؤلف إلى الحديث عن :

المواد والتقنية : Materials and Techniques

قدم المؤلف فى هذا القسم من كتابه ، مجموعة ممتازة من الصور الملونة لبعض النماذج المنتقاة من الكم الكبير للنحت الإفريقى الموجود فى المتاحف الأوربية والأمريكية ومن المقتنيات الشخصية لمحبى هذا الفن والمهتمين به .

ورغم صدور عدد من الكتب والمجلدات عن الفن الإفريقى ،

إلا أن هذا الكتاب يمكن اعتباره مجلداً فنياً وافياً عن النحت الافريقي في وسط وغرب أفريقيا خاصة بما يتميز به من مجموعة رائعة من الصور الفنية المبرزة لأصالة وجمال التعبير الفني في النحت، وبأسلوب يرقى في رشاقته وتعاطفه الفني إلى جمال المادة الفنية المقدمة في الكتاب. ومقارنة أنماط هذا الفن - النحت - بين القبائل الإفريقية التي يتناول المؤلف إبداعها.. ورصد أشكال هذه القطع الفنية مادة واسلوباً في بلدان وسط وغرب افريقيا وبين القبائل المنتشرة في هذه المساحة الواسعة مع توزيع أماكن انتشارها على خريطة مرفقة في نهاية الكتاب .

والمواد الشائعة في النحت الإفريقي هي التيراكوتا Terracotta، وهو نوع من الطين الجيد الذى يستخدم في صناعة الفخار، الحجر، الحديد، البرونز، الذهب، العاج، والخشب. وهو أكثر المواد استخداماً في النحت الإفريقي، ورغم وجود بعض القطع الفنية من الحجر إلا أن الخشب هو الأغلب، وذلك أمر طبيعي بالنسبة لطبيعة البيئة، كما أن نوعاً قليلاً من الأحجار الموجودة في افريقيا يصلح للنحت، في حين أن الخشب متوفر في الغابات ولا يحتاج جهداً في الحصول عليه

واستخدامه، مثلما تحتاج الأحجار. «والنحت الإفريقى الخشبى يتميز بالبساطة من الناحية الفنية، ولكنه فى الوقت نفسه قوى والإنسان يتعجب بالنسبة للنتيجة التى يشاهدها، باعتبار نوعية الأدوات المستخدمة». وبالنسبة للحديد والبرونز فإن الفنان الإفريقى يصهره بالشكل البدائى مستخدماً فى صبه القوالب أو بتسخين أسياخ الحديد وطرقها. أما الذهب فهو عادة من مقتنيات الملوك. ويشرح المؤلف وسائل صياغته، كما يشير إلى أن العاج، رغم أنه من أكثر وأهم صادرات أفريقيا، إلا أن القليل منه يستخدم فى النحت. وقد يكون سبب ذلك صلابة العاج التى تفوق أصلد أنواع الخشب، ويحتاج فى نحته إلى أدوات أشد حدة وأكثر صلابة من تلك التى تستخدم فى حفر الخشب. والمؤلف فى هذا الفصل أو القسم من كتابه يهتم بعرض النماذج وذكر اشهر المناطق التى تختص بنوع من هذه المواد، أكثر من عرضه الأسلوب وحرفية العمل، وقد يكون مرد ذلك إلى أن الخبرة العملية فى النحت معروفة، وخاصة أن الخبرة العملية فى المجتمعات الإفريقية ما زالت بدائية وتعتمد على الأدوات البسيطة .

الأساليب : Styles

يختص القسم الأخير من الكتاب بعرض أساليب النحت الإفريقي وأشكاله، ويعرضها المؤلف عرضاً جغرافياً وسكانياً بالنسبة للبلاد والقبائل مبتدئاً بغينيا ومنتهياً بأزاندى تبعاً لانتشار القبائل التى يعرض لأساليب أبداعها الفنى .

هذا القسم الذى يستغرق من الكتاب أكثر من نصفه له أهمية خاصة، نظراً لأنه يقدم السمات الخاصة بكل قطاع اجتماعي وجغرافى مما يتناوله المؤلف من نماذج فنية هامة من النحت الإفريقي، والجوانب الثقافية - من أساطير ومعتقدات - التى تحيط بهذه الأشكال الفنية. فمثلاً قبيلة الباجا Baga التى يحترف أهلها صيد الأسماك ويقطنون على ساحل غانا، يعتقدون بوجود إله على شكل رجل فى هيئة الطير (Bird - man) ويصنعون تمثالاً يصور هذا الإله، ويحملون هذا التمثال إلى مكان خفى مقدس، ويحضرونه كل سبعة أعوام - خلال موسم الجفاف - إلى حقول الأرز التى تحيط بالقرية. كما يتميز فنهم بالأقنعة الرهيبة التى تصور بعض الحيوانات. وفى سيراليون Sierra Leone نجد الأقنعة التى يصنعها شعب بوندو Bundu أكثر متانة، وتصنع من الخشب وترتديها النساء. وبين

القبائل المتفرعة من شعب سنوفو Senufo تتشابه الأساليب سواء فى الشكل أو روح العمل الفنى، من حيث التعبير عن الإنسان أو الحيوان، وتتشابه الموتيفات والوحدات الزخرفية التى تزخرف الأقنعة بين قبائل البامبارا Bambara ودوجون Dogon وكورومبا Kurumba وموسى Mossi وماركا Marka وبوبو Bobo ولوبى Lobi وهى قبائل تنتمى أصلاً إلى المجموعة البشرية التى تسمى سنوفو Senufo التى تنتشر على ساحل العاج وفى مالى شمالا. والطائر سواء صغر حجمه أو كبر، هو رمز هام بين هذه القبائل، «إنه يحرس الكوخ والقرية». وتتعدد أشكال الأقنعة التى تستخدم بين هذه القبائل فى الرقصات الطقوسية المرتبطة بالزراعة. كما تزخرف أبواب مخازن الغلال بحفر غائر وبارز، وبرموز اعتقادية تهدف إلى حماية المحصول.

والتماثيل الملونة لدى البوبو Bobo تمثل الأرض الأم، كمصدر للغذاء، كما أن التجريد سمة فى إنتاج موسى Mossi والواقعية طابع أعمال بامبارا Bambara التى تتميز بقوة وديناميكية أساليبها.. هذا التجريد وتلك الواقعية نجدهما متوحدين فى فن البوبو الذى يمتلىء بالحركة، وتصميمه الذى يتناسب مع حركة الراقصين. كما أن أبواب أكواخ البول Baule تزخرف مثل

قبائل سنوفو . وتتعدد موتيفاتها ووحداتها الزخرفية التى تتشكل من الأسماك والثعابين والسحالف ومن بعض الأقنعة وأحياناً من الخيول والخيالة والتماسيح .

هذه الوحدات الأخيرة ، من المرجح أنها انتقلت من جنوب السودان مع القبائل المهاجرة والبول ينتسبون أصلاً إلى مملكة أشانتى الشهيرة بفنونها التقليدية وفن البول له أيضاً شهرة كبيرة فى أوروبا ويرجع إليه الفضل فى اجتذاب كثير من محبى الفنون الجميلة الذين تعلموا منه كيف يقدرون الفن الإفريقى .

والمجموعة الرائعة التى اكتشفت فى بنين بنيجيريا ، قد أثرت فى أشكال الإبداع الفنى الأوروبى الحديث ، سواء من حيث الأسلوب والشكل أو المادة المستخدمة ، وذلك باستخدام مواد جديدة مما يستخدم فى الحياة اليومية النفعية وتعتبر هذه المجموعة وثائق تعبر عن واقع الحياة ، بما فيها من تجريد والتصاق بالأرض . وبتعبير المؤلف : (ما أروع القصة التى ترويها هذه المجموعة ، فى حدة وثراء ، إنها تكاد أن تكون وثيقة مخطوطة عن أفريقيا) .

ومن يوروبا Yoruba وأفو Afo وايكوى Ekoi ، يقدم المؤلف نماذج من أعمالهم الفنية التى تتميز بالتماثيل التى تتشكل

على شكل الإنسان محددة الملامح كما أن أقنعة الإيبيبيو Ibibio، تعتبر من الأقنعة المعبرة جداً، وعادة تكون سوداء. وحينما يعرض المؤلف لهذه الأساليب يستشهد أحياناً بآراء بعض الدارسين الأوروبيين مثل فاج William Fagg أحد المتخصصين في هذا الميدان والذى أصدر عدة دراسات عن الفن والنحت الافريقيين(٤).

والمجموعة التى يقدمها المؤلف من نماذج النحت الإفريقى التى تمثل معظم قبائل وسط وغرب أفريقيا، من الصعب اعطاء وصف دقيق لها، وتحتاج لتأملها إلى رؤية مباشرة، رغم أن مجرد النظر إلى الصور الواردة فى الكتاب عن بعض هذه الأعمال يثير فى المشاهد المهتم بالفن الإفريقى خاصة، والفنون الجميلة عامة، رؤى جديدة فى استشعار القيم الجمالية للإبداع الفنى التشكيلى. وقد قدم المؤلف نماذج من الأقنعة الموجودة فى الكاميرون من نتاج قبيلة فانغ Fang التى تعيش فى الغابات الكثيفة بغرب أفريقيا. وتعتبر الأقنعة التى أمكن الحصول عليها من هذه المجتمعات قطعاً نادرة، وهى تستخدم فى أغراض طقوسية - مثلها مثل معظم الأقنعة الإفريقية - لدرء الشر، وفى ممارسات سحرية. ومعظم النحت الإفريقى يقوم بهذا الدور من

الحماية والنفعية ومخاطبة القوى الغيبية، مثله فى ذلك مثل الكثير من مظاهر التعبير الفنى الإفريقى من رقص وموسيقى وغناء .

بجوار الفانج Fang تقطن قبيلة الباكوتاBakota، ولهم مثل عادات الفانج، وخاصة فى الطقوس الجنائزية، من حفاظ على عظام موتاهم وعمل بعض التماثيل التى تمثل أرواح الموتى .

كما تتميز قبيلتا مبونجوى M'pongwe وباكويل Pakweleبالأقنعة الجميلة، وخاصة أقنعة باكويل التى تتميز بالنحت المسطح، والمزج بين الإنسان والحيوان، فالقسم الأعلى من القناع على شكل وجه إنسان والقسم الأسفل على شكل أنياب خنزير برى. وعند الباتيك Batek فى ستانلى بول تتباين أحجام التماثيل من عدة سنتيمترات إلى نصف متر تقريبا، وتتضح فيها التلقائية والإيقاع الحاد. ويعتبر أسلوب النحت عند باتيك أسلوباً خاصاً، وهذه التماثيل متنوعة الأحجام ومنها ما هو تمائم تحمى الأطفال إلى أن يبلغوا سن البلوغ، وهى تصنع غالباً من البرونز أو النحاس وتزخرف بوحدات هندسية، كما أنها تمثل نمو الإنسان من الطفولة إلى الكهولة .

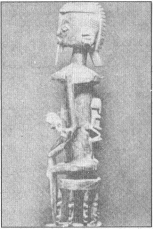
أما الإبداع الفنى للباكونجو Bakongo فإننا نشعر فيه بدفء

الإحساس الإنسانى دون أدنى إحساس بالجنس، والواقع أن الشهوانية لا معنى لها بين زنوج أفريقيا . والفنان الإفريقى حينما يشكل تماثيله بكامل أعضاء جسم الإنسان ذكراً أو انثى، إنما يعبر بذلك عن واقع الحياة الطبيعية دون اغفال لبعض مظاهرها، بل قد يشكل هذه الأعضاء فى تماثيله بكل دقة، باعتبار أنها جانب أساسى فى الحياة .

والتماثيل الجنائزية لدى الباكونجو نجدها جيدة التشطيب وملمعة بعناية كبيرة، وقد يكون العامل المساعد فى ذلك أنها مصنوعة من الحجر الصابونى . هذه التماثيل تعتبر نموذجاً فريداً من التشكيل الحر فى غرب أفريقيا، فالأرجل متقاطعة والوجه عليه مسحة من الحزن الحالم أو الاذعان كأنه نوع من التمثل الروحى لما بعد الحياة(٥) .

أما الباياكا Bayaka فيتميز ابداعهم بالخيال الخصب والألوان الصريحة . الأنف مجعد إلى أعلى، والوجه ملون فى بعض أجزائه باللون الأبيض، وكأنه وجه مهرج من مهرجى السيرك Circus فى عصرنا الحديث . . ويتساءل المؤلف عما إذا كان وجه المهرج الحديث له معنى اسطورى قديم ؟

مثل هذه الأقنعة نجدها أيضاً عند الباسوكو Basuku التى



تمثال من الخشب، يمثل امرأة جالسة تحمل طفلاً - من أعمال قبيلة دوجون بمالي

تعتبر فرعاً من البايايكا، وهذه الأقنعة تستخدم بصفة عامة فى طقوس حفلات الختان Circumcision .

إن تتبع القبائل التى عرض المؤلف لأساليب فنها العديدة، قد يفوق المساحة المخصصة لعرض هذا الكتاب، ولكن أجد لنفسى بعض العذر فى هذا الاستطراد، وهو أهمية القاء بعض الضوء على هذه الابداعات الفنية التى اهتم بها الأوروبيون أكثر من اهتمامنا نحن أبناء العمومة أو على الأقل أبناء الجوار. كما أن حملات التبشير قد تركت آثارها فى الفن الإفريقى، عند بعض القبائل. فمثلا تمثال الأم وطفلها عند الباجوكوى Bajokwe هو تصور أفريقى للعذراء وابنها المسيح .

بعد قبيلة الباجوكوى تحدث موزيه عن أقنعة بايند (Bapende) التى تصنع من العظم أو العاج أكثر من الخشب، وتميل ألوانها إلى اللون البرتقالى، كما أنها أقرب ما تكون تجسيداً للنماذج الأصلية إذ تنحت على مثالها. وفى بنالولو Bena'ulo تتشابه التماثيل مع الأقنعة من حيث بروز الجبهات وكثافة الوحدات الزخرفية الملونة. أما تماثيل الباسونج Basonge فتتميز بكبر حجمها، إذ تبلغ حوالى المتر ومعظمها يستخدم فى أغراض طبية وسحرية. كما أن عمليات الإبداع الفنى لا

تقتصر على فئة معينة أو مناسبة خاصة، بل يمارس الاستخدام والإبداع الفنى خلال ممارسة الحياة اليومية. ويظهر فى انتاجهم الفنى الثراء الزخرفى، ومعظم هذا النتاج يستخدم للزينة أكثر من استخدامه فى أغراض دينية. ويستمر المؤلف فى عرضه لأساليب النحت بين القبائل الإفريقية وتمييز كل قبيلة ومنطقة بطابع خاص فالنحت عند بابيمب Babembe التى تقطن شمال بحيرة تنجانيقا يتسم بالتجريد. والتجريد الصادق عند المؤلف (يستخلص دائما القوة من الحياة الواقعية). وعند قبيلة بالوبا Baluba نجد التعبير العميق. أما فن الباروتس Barotse فى شمال زامبيزى Zambezi فيشتهر بصناعة الأطباق الخشبية البيضاوية الشكل والاغطية المزخرفة بنماذج متنوعة من الحيوانات، مثل الفيلة، والطيور... إلخ.

والأقنعة عند المبوندا Mbunda الذين يعيشون فى نفس المنطقة - هى أقنعة معبرة غاية التعبير وتتسم بالجبهات الطويلة والخدود المستديرة الممتلئة. هذه الأقنعة، تستخدم فى احتفالات ظهور القمر. أما أقنعة الماكوند Makonde الذين يقطنون على طول الحدود الشمالية من موزامبيق فتعتبر من أكثر الأقنعة الافريقية واقعية، أما قبيلة البوكوبا Bukoba فى تنزانيا

Tanzania التى تشتهر بصناعة الحديد، وتتميز أعمالها بالتجريد، والقطعة الشهيرة (الثور) المعروضة فى متحف ليندن Linden باشتوتجارت، تقدم مثالاً رائعاً لهذه القدرة الخارقة فى التجريد. وتثير فى ذاكرتنا العمل الفنى الشهير لبيكاسو عن «فكرة الثور».

ويختم المؤلف عرضه لفن هذه القبائل المتعددة التى ذكرنا العديد منها، بالحديث عن فن أزاندى Azande الذى تميز بالفخار المزخرف والآلات الموسيقية، مثل الهارب والنفير، مما يصنع من العاج ويزخرف بوحدات تمثل وجوهاً بشرية. ثم يعقب حديثه عن هذه القبائل وأساليب فنونها بقسم آخر يضم مجموعة من الصور الفوتوغرافية، مصنفة حسب البلدان الأفريقية موضوع دراسته: غينيا الغربية، مقاطعات الڤولتا والنيجر العليا، ساحل العاج، غانا، نيجيريا، اقليم تشاد، الكاميرون، جابون وإقليم الكونغو. وكل صورة موضح بجوارها مواصفاتها وأماكن وجودها حاليا وموطنها الأصلى.

كما أرفق بدراسته قائمة فهرسية بأهم المراجع التى تهم الباحث والمهتم بالفنون الإفريقية، ثم معجماً موجزاً للكلمات والمسميات الإفريقية التى وردت ضمن حديثه.

والكتاب بجانب قيمته فى اعطاء أبعاد هامة فى فهم وأدراك القيم الجمالية للنحت الإفريقى، يلقى ضوءاً غير قليل على بعض مقولات الفكر الإفريقى، يساعد فى فهم هذه الثقافة. وهو بما يضمه من مجموعة رائعة من الصور الفوتوغرافية والدراسة الفنية، يعتبر مرجعاً هاماً للمهتمين بالثقافة الإفريقية والمشتغلين بالإبداع الفنى ..

هوامش الفصل الرابع

Pierre Meauzé, African Art, Sculpture, London 1968, Weidenfeld and Nicolson Ltd.

(1) Pierre Meauzé, Curator of the Musée des Arts Africains et Océaniéns in Paris.

(٢) الواقع أن المؤلف لا يبالغ في وصف موقف هؤلاء الباحثين من تقديرهم للفن الأفريقي، فمن العبارات التي أوردها مارسيل جريول* عن الفن الأفريقي قوله : «إنه إبداع له القدرة على أن يخترق حواجز الثقافة ليلمس أرواحنا». .

Marcel Griaule, African Art, Larousse Encyclopedia of Prehistoric and Ancient Art, London, 1967, Paul Hamlyn, p. 81.

(٣) انظر صفحة ٢٨ من الكتاب.

(٤) W. Fagg, Les Merveilles de L'Art Nigérien, Editions du Chéne, Paris 1963.

W. Fagg et Elisofon, La Sculpture Africaine, F. Hazan, Paris 1960.

* W. Fagg and Margaret Plass, African Sculpture, Dutton Vista Picturebacks, London 1964.

(٥) من المحتمل أن يكون هذا الشكل من تقاطع الأرجل له ارتباط بشكل وطريقة دفن الموتى، فمن الحفريات التي تمت في قرية عنيبة بالنوبة المصرية في عام ١٩٦٠ أو ١٩٦١ - إن لم تخنى ذاكرتي - شاهدت بعض الأجساد المحنطة من (العبيد) قد دفنت موثوقة الأرجل على هذاالشكل. وقد رجح بعض الأثريين المصريين المشرفين على هذه الحفريات أن هذه القبور تنتمى إلى العصر البيزنطى.

المؤلـف

* **صفوت كمال**
* من مواليد القاهرة عام ١٩٣١ .
* تخرج في كلية الآداب، قسم الفلسفة بجامعة القاهرة عام ١٩٥٦ .
* اشترك مع الأستاذ أحمد رشدى صالح في تأسيس مركز الفنون الشعبية بالقاهرة عام ١٩٥٧ .
* أوفدته الدولة في منحة دراسية إلى جامعة وارسو ببولندا ١٩٥٨ وتخصص في مناهج البحث الإثنوجرافية والفولكلور .
* قام بجمع وتسجيل ودراسة مختلف أنماط الفنون الشعبية المصرية مع نخبة من زملائه الباحثين، ويضم أرشيف ومتحف مركز الفنون الشعبية المواد التي قام بجمعها وتسجيلها من مختلف أنحاء مصر .
* أعارته الحكومة المصرية خبيراً للفنون الشعبية إلى دولة الكويت ١٩٦٦ حيث قام بتطوير مركز رعاية الفنون الشعبية هناك، ووضع خطة العمل العلمية به .
* قام بإصدار عدد من الدراسات والكتب عن الفولكلور الكويتي والأمثال الشعبية المقارنة والحكايات الشعبية وعادات وتقاليد الزواج وفنون الغناء الشعبي، آخرها المأثورات الشعبية علم وفن - مكتبة الأسرة ٢٠٠٠
* اشترك في كثير من مؤتمرات الفولكلور الدولية والمصرية والعربية منذ عام ١٩٥٨ حتى الآن .
* اختير أول عضو مصرى عربى فى هيئة الإثنولوجي والفولكلور الدولية ١٩٦٥ ومنظمة الفنون الشعبية الدولية ١٩٨٥ .
* عمل خبيراً وأستاذاً لعلم الفولكلور بالمعهد العالي للفنون الشعبية في الفترة من ١٩٨٤ حتى ١٩٩١، وأستاذاً غير متفرغ منذ ١٩٩١ حتى الآن .
* عضو مجمع الموسيقا العربية ١٩٧١، وقام بوضع مشروع خطة دراسة الأغاني الشعبية العربية بالمؤتمر الثاني للموسيقا العربية عام ١٩٦٩
* ساهم في تحرير مجلة الفنون الشعبية المصرية منذ صدورها في يناير ١٩٦٥ حتى الآن، ويشغل حاليا منصب نائب رئيس تحريرها .
* عضو شعبة الفنون بالمجلس القومي للثقافة والفنون والإعلام .
* عضو لجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة .
* منح العديد من شهادات التقدير والميداليات والدروع التذكارية من هيئات مصرية، وبعض الدول والمنظمات العربية والأجنبية .
* حاز جائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠١ .

قائمة إصدارات

مكتبة الدراسات الشعبية

(صدر العدد الأول فى يناير من عام ١٩٩٦)

١ - قصصنا الشعبى .... د. فؤاد حسنين على
٢ - يا ليل يا عين .... يحيى حقى
٣ - سيد درويش .... محمد دواره
٤ - المجذوب .... فاروق خورشيد
٥ - فن الحزن .... كرم الأبنودى
٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى .... د. نبيلة إبراهيم
٧ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ١ .... د. محمد حافظ دياب
٨ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ٢ ... د. محمد حافظ دياب
٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى .... إبراهيم حلمى
١٠ - موال أدهم الشرقاوى .... د. يسرى العزب
١١ - الرقص الشعبى فى مصر .... سعد الخادم
١٢ - المغازى .... د. صلاح فضل
١٣ - بين التاريخ والفولكلور .... د. قاسم عبده قاسم
١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش .... عرفه عبده على
١٥ - فلسفة المثل الشعبى .... محمد ابراهيم أبو سنة
١٦ - الظاهر بيبرس .... د. عبد الحميد يونس
١٧ - الحكاية الشعبية .... د. عبد الحميد يونس
١٨ - خيال الظل .... د. عبد الحميد يونس
١٩ - الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة .... سعد الخادم

كتب تصدر قريباً

* بطولة عنترة : بين سيرته وشعره... محمد أبو الفتوح العفيفى
* على الزيبق ....فاروق خورشيد
* جحا العربى .... كاظم سعد الدين
* سيرة حمزة البهلوان

من أساطير الخلق والزمن

يتعرف القراء فى هذا الكتاب على أساطير الخلق، وعلى الرموز والشعائر المؤثرة عبر القرون فى الوجدان الإنسانى وما بينها من قواسم مشتركة تؤكد وحدة الإنسانية على هذا الكوكب الأرضى البديع. ويتعرفون كذلك على مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية، وعلى فن من أهم وأرفع الفنون الشعبية فى أفريقية ونعنى به فن الأقنعة الذى وصل عند بعضهم إلى مرتبة الإعجاز الفنى فى اتساع أفق الفنان البدائى التلقائى ومدى دقته فى تنفيذ تصوراته.

سنوات طويلة وجهود مضنية بذلها صفوت كمال مخلصا لهذا العلم الذى يعتبر أهم مدخل لدراسة الإنسان واكتشاف جوهرة اه الثمين، حتى أصبح حق أحد أهم مؤسسى علم الفولكلور العربى.

الأمل للطباعة و النشر

الثمن: جنيهان